رواية

إيمانويل بوف

الليلة الأخيرة

ترجمة: صلاح بن عيّاد

صفحة ٧

«العشاق وقحون وأنانيون»....

إيمانويل بوف

Bitterness-5

تقديم

يوم 13 يوليو من سنة 1945 وبينما كانت فرنسا تستعدّ للاحتفال بأوّل عيد تحرير لها (14 يوليو) ، بينما كانت الأعلام تخفق والأكاليل ترفرف في كلّ مكان لتنشر سعادة وطنيّة كبرى في كلّ الشّوارع وساحات القرى. في نفس ذاك يوم، وفي مدينة بارس، في المنزل رقم 59 من» شارع التّارنس» ، في صبيحة نفس هذا الجمعة 13، قضى شابّ نحبَه غارقا في حمّى الملاريا والإهمال العامّ، هو كاتب فرنسيّ شابّ، كان يمكن أن يكون واحدا من أكبر كتّاب ذاك العصر واسمه: بوبوفنيكوف إيمانويل المعروف بـ «بوف».

هو ابن لمهاجر أوكرانيّ من أصل يهوديّ وخادمة منزليّة من لوكسمبورغ تُدعى «هنريّات ميشال»، ولد بوف في باريس يوم عشرين من أبريل/ أفريل/ 1898. قضّى طفولةً بائسةً، بين أبٍ عربيد وأمّ ضحيّة، لذلك واجه الطّفل إيمانويل ومنذ نعومة أظفاره هشاشة سنلمسها فيما بعد في كلّ سروده. تحدّث عن تلك المرحلة أخوه الأكبر ليون قائلا «كان إيمانويل ينامُ على سرير مترهّل بفعل البقّ، وقد يسقط في أيّ لحظة. كان الأطفال حتّى خلال شهر يناير/ جانفي يشاهدون البقّ بينما يكون متقافزا على الحيطان وكانوا

يسحقونه بأصابعهم. دائما ما كانت هنريّات تجد نفسها مع طفليْها بصدد الرّكض كمجنونة لا تعرف أين تتّجه».

عرفت طفولة بوف تحسّنا عندما تعرّف بوبوفنيكوف الأب على رسّامة إنجليزية ثريّة اسمها «**إيميلي أوفرويغ**»، سرعان ما راح الأب يقتسم حياته مع الزّوجة والعشيقة. كفّ إيمانويل على التّشرذم ما بين منزلين واكتشف ما قد نعتبره «العالم الآخر» التّابع للأثرياء. كتب بوف عن هذه المرحلة في إحدى رواياته قائلا: «مع أنّه لم يكن أكثر من طفل، إلاّ أنّه اكتشف كم تبدو مختلفة تلك المرأة الغريبة، الّتي لا ترفع صوتها البتّة، والّتي تعيشُ ما بين الكتب والألوان والأشياء الّتي تعتبرها ثمينة». انتهت هذه السّنوات بقسوة: إفلاس إيميلي والعودة إلى حياة الخصاصة فأثر لن يمّحي من حياة إيمانويل الكاتب.

عندما بلغ كاتبُنا سنَّ السّابعة عشر، تُوفّي والدُه تأثّرا بمرض السّلّ. ومن هنا بدأت حياة الوحدة في شارع «سان جاك» بباريس في فندق حقير وليعمل كنادل في مطعم وعامل بشركة «رونولت» للسّيارات، فسائق للتّراموای. حتّى أنّه قضّى شهرا في الحجر الصّحيّ والسّبب كانت وضعيّته التّعيسة واسمه ذو الرنّة الأجنبيّة. وقد وفّرت هذه الحياة البائسة إطار أولى رواياته: «أصدقائي» و«أرماند».

سنة 1918، أُستُدعِيَ بوف للخدمة العسكريّة، وقد تمكّن من تجنّب المشاركة في الحرب بفضل الهدنة. وبعد أن تمّ تسريحة، تزّوج بمعلّمة شابّة تُدعى «سوزان فالوا») وهي إحدى شخصيّات الرّواية بين أيدينا: اللّيلة الأخيرة). وقد قرّر الكتابة منذ ذلك الوقت جدّيا.

غادر الزّوجان إلى النّمسا حيث لاءم التّغييرُ إيمانويل ليتمكّن من الكتابة في كنف السّلام. لكن، وللأسف عاشا صعوبات جمّة في بلد دمّرته الحرب. ثمّ وُلِدت ابنته «نورا» مع نشر أوّل كتاب له.

قامت كوليت (1873- 1954)، هذه المرأة الّتي كانت جِنِيَّةً أدبيّة طيّبة، بدور عرّابة غير متوقّعة، فنشرت كتابه الأوّل سنة 1924، وقد حمل هذا الكتاب عنوانا بسيطا لكن بديعا «أصدقائي». بعد ظهور الرّواية بقليل، نشر الكاتب المعروف ساشا غويتري(1885- 1957)مقالة حماسيّة في المجلّة الأدبية «كانديد» بلغة مندهشة: «حسنا، هناك شخص مهمّ!» كانت دراسة مدحيّة، قارنتْهُ بمارسيل بروست ودوستويفسكي. ليكتب فيما بعد الصّحفي الشّهير «جون بوتروت» قائلا: «كلّ عذابات حياتنا، هذه العذابات التي نشاهدها كلّ يوم أو الّتي نسعى إلى إخمادها لكنّها تنتهي دائما بالانتصار علينا، هذه العذابات موجودة كلّها في هذا الكتاب البديع». عرف الكاتب الشّابّ وهو في سنّ السادسة والعشرين النّجاح الفوريّ ليصبح أسطورة بين أقرانه. ومع تعاقب الشّهور، تعاظمت الانطباعات حوله إلى حدود هذا السّؤال الّذي سيتردّد صداه إلى حدود يومنا هذا: «هل قرأتم إيمانويل بوف؟» سأل الشّاعر الألماني الشّهير راينر ماريا ريلكا (1875-1926) بإعجاب على غرار إقامته في باريس، ثمّ طلب بأن يعرّفوه على بوف. ومن هنا لا يمكننا ذكر شهادات الإعجاب الكثيرة، من كتّاب كانوا صامتين عن ذكره منذ أندريه جيد، إلى ماكس جاكوب وآخرين. يكفي أن تقرأ الأسطر الأولى من «أصدقائي» حتّى تندهش بفرادة ووضوح كتابة

بوف.

بعد نشر كتابه الأوّل تفرّغ إيمانويل بوف إلى كتابة بعض المقالات الصّحفية تحت عنوان «حقائق مختلفة» دون أن يكفّ عن العمل على رواياته، ليختفي خلفها مخيّرا الصّمت على الإشهار، إذ كان يخيّر أن يُنسى تماما كما يعمل آخرون على أن يُعرفوا كثيرا.

وتعاقبت كتاباته بنسق متسارع، كتابات متفرّدة إلى درجة أنّ أحدهم كتب عنها الجملة التّالية: «هو قادر على إيجاد جمل غاية في البساطة إلى درجة أنّها قادرة على أن تصبح جُملك الخاصّة».

سنة 1928 وعلى إثر حصوله على «جائزة فيغار» وهي من أهمّ جوائز ذاك العصر، صرّح إيمانويل بوف وهو المقلّ في تصريحاته للصّحفيّين معبّرا بكلّ ثقة عن سرّ عبقريّته الأدبيّة، «لا ينبغي للأدب أن يكون أدبيّا كثيرا»، «إذا ما أردنا الدّخول إلى عمق الأدب، لا ينبغي أن نضع زيّا أدبيّا. نحن نتوصّل إلى ذاك عبر قوّة الحياة وحدها. فبلزاك وديكنز ودوستويفسكي، هل ترون بأنّ هؤلاء العظماء ليسوا أدبيّين. إنّهم رجال يكتبون بكلّ بساطة. فالحياة بعيدة على أن تكون أدبيّة، وعندما يكون كاتب بهذه القامة يدخل الأدب بنفس هذه القامة دون أن يخطّط لإنجاز أيّ شيء أدبيّ...»

قبل أن ينشر «اللّيلة الأخيرة» الرّواية الّتي نحن قيد ترجمتها، كتب إيمانويل بوف قائلا «إنّها اللّحظة الّتي وصلت فيها إلى منتصف حياتي وقد أدركت بأنّي لا أملك شيئا، وأنّي كنت دائما مخطئا، وأنّي تصرّفت دائما بوصفي شخصا مؤمنا بإمكانيّة أن يجد نفسه في النّهج

الصّحيح غير أنّي كنتُ مخطئا. يمكن لكلّ شيء أن يتهاوى في أيّ لحظة، وها أنا اليوم: بلا أصدقاء، بلا ممتلكات ولا حتّى وضعيّة محترمة».

هذه الرّواية هي مسيرة بحث البطل «البوفيّ» عن الصّفح والفهم، عن إثبات جمال روحه عبر لهاث خلف إنجاز «فعل جميل» ينسى به أخطاءه فينساها الجميع. هذه الفكرة الجميلة الّتي لن يحصل عليها أبدا.

هكذا كتب إيمانويل بوف وهي ما قد يلخّص كلّ سيرته الحياتيّة والكتابيّة:

«لم أطالب الوجود بشيء خارق. لم أطالبه إلاّ بشيء واحد أحد. وقد كان دائما ما يرفض لي هذا الطّلب. ناضلت حقّا من أجل الحصول عليه. هذا الشّيء، بحث عنه أشباهي أيضا. هذا الشّيء، ليس نقودا ولا صداقة ولا مجدا. إنّه بكلّ بساطة مكان بين النّاس، مكان لي وحدي، مكان يُعرف على أنّه ملكي فلا يطمح إليه أحد، بما أنّه بلا ميزة تجعله مطمحَ أحد. مكان لا يتميّز عن الأماكن الأخرى المشغولة. فقط عليه أن يكون مكانا محترما»

(مذكّرات رجل متفرّد، 1939)

عن دراسة مطوّلة للكاتب والصّحفي الفرنسيّ المختص في إيمانويل بوف.

جون لوك بيتون.... (بتصرّف)

تردّد جرسُ السّاعة الرّابعة.

بدأ اللّيل بالحلول قبل أوانه، في هذا المساء من شهر نوفمبر بمطره الّذي طالما كان مُنتظرا. هل في وسع هذه اللّيلة، خلافا لما سبقتها من اللّيالي، أن تُنسيَ كآبة النّهار الّذي يشارف على نهايته. راحت نوافذ الفندق الصّغير حيث يقيم أرنولد تضيء الواحدة تلوَ الأخرى. جلّ روّاد هذا الفندق الواقع في شارع مزدحم من حيّ مونمارتر موسيقيّون وراقصاتٌ وشبّان. وها قد بدأوا بالاستيقاظ. كان أرنولد يسمع من خلال الحيطان الرقيقة الّتي تفصل الشّقق أصواتا لأشياء منقولة ورنّات منبعثة من المنبّهات. لم يُنرْ شقّته. اكتفى بالجلوس قرب النّافذة حيثُ يصل ضوءٌ أحمر ضئيلٌ متصاعد من الشّارع وكان يبدو فريسة ليأس عميق. لكن، أ ليس في هذه الهيئة التّأمّليّة شيءٌ ما مسرحيّ؟

فجأة قفز من مكانه وكأنّ مرآةً قد انفجرت للتّوّ من خلفه وتقاذفت شظايا. انقبضت أصابعُه واتّسعت عيناه بشكل مضحك. فتح فمه، لا مثل الغطّاس الّذي يستنشق احتياطيّه من الهواء لكنّها العصبيّة. ثمّ انتبه إلى قبح هذه الحفرة الّتي تتوسّط وجهه. انطبقت شفتاه من جديد وخيّم الهدوءُ على قسمات الشّابّ المرهق والطّموح.

كان بحدقتيْن زرقاويْن كحدقتيْ طفل، وبيديْن ناتئتيْن. وكان يتنفّس بكلّ هدوء. انقضت دقائق وهو على هذه الحال دون أن تهتزّ عضلة واحدة من كلّ جسمه. «هذا كثير... لم يعد بي قوّة...» تمتم أخيرا. ولم يكن يعرف ما هذا الكثير، ولا لأيّ مهمّة يحتَاجُ القوّةَ. «إنّي أعاني... إنّي حزين». أضاف قائلا. كان يتوهّم الكلمات. «هل أنا أكثر تعاسة ممّا أعتقد؟».

حرّك يده اليمنى دون وعي كبير. فلفتت هذه الحركة انتباهه إليها. راح يتأمّلها. «لا... هذا غير ممكن.» كان هناك رجل يتكلّم في الغرفة المجاورة دون أن يجيبه أحد. انتصب أرنولد واقفا. وبعد لحظات من التّردّد، توجّه إلى الباب، وأدار المفتاح.

وهنا بدت الغرفة مؤثّثة بشكل متواضع وباذخ[في آن]. فالسّرير مجرّد أريكة. وورق الحائط بلونيْه المتراوحيْن بين المذهّب والأرجوانيّ يطمح إلى أن يكون منتميا «لموضة اليوم». هناك أيضا أباجور ورديّ بإطار خشبيّ فضّيّ يحجبُ الضّوء. لكنّ صاحب الفندق ليس من الّذين قد يستبدلون إطارا مُدبّبا للمرآة ممّا يجعله معلّقا فوق المدخنة الرّخاميّة السّوداء. على الأرضيّة، وأمام هذه المدفأة مباشرة هناك سجائرُ نصف مستهلكة وأعوادُ ثقاب وعلبٌ فارغة، وأوراق مجعّدة.

فجأة، وكخائف من أن يتلقّى ضربة من الخلف، دار حول نفسه. «يا لروعة نصف الدّوران هذا»، قال بكلّ رضى. رفع يده إلى جبينه، ضغط على صدغه بالإبهام والسبّابة. «أبدا لن تُسعفني الشّجاعة، غمغم قائلا، لكن لابدّ من ذلك، لابدّ من ذلك.» خطا خطوات

قليلة. «لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل...» أضاف بقوله، بصوت مسموع هذه المرّة. سحب سيجارة وأشعلها. «إنّها سيجارة المُدَان» قال متظاهرا ببعض المُزْحَةِ.

مازال يمكن الاستماع للصّخب في الشّارع. أمّا في ممرّ الطّابق العلويّ، فهناك ذهابٌ وإيّابٌ متواصلان.

- السّيّد جان! هكذا نسمع أحدهم ينادي من حين إلى آخر.

راح أرنولد يدور حول نفسه في انزعاج، ليتوقّف بين الحين والآخر من أجل تأمّل الجدران وكأنّه يشتهي أن يلقي بنفسه عرْضها. «سيصيبُني دوارٌ...» هكذا فكّر. جلس، ألصق ركبتيْه إلى بعضهما البعض وأمسك قدميْه بيديْه. لوى زوجيْ حذائه إلى أقصى ما يستطيعُ، مثلما يفعل صانعو الأحذية من أجل إقناع حريف بمرونة سلعهم. هزّتْهُ سخريّة ما. «يا للرّداءة!» قال في نفسه. ووقف بقفزة واحدة، لكنّها حماسة سرعان ما خمدت. لم يكن يعرف ماذا يفعل. هل يتمدّد على سريره، هل يفتح النّافذة، هل يبرّد وجهه ببعض الماء أم يعاود الجلوس من جديد؟ إنّه لا يعرف شيئا عن كلّ ذلك. وإنّه لا يدرك حتّى بأنّه قد انتصب واقفا لتوّه. إنّه هنا، واقف، في غرفة أصغر من أن تحتمله، بعينيْن متّجهتين صوب السّماء أو بالأحرى بعينيْن تنظران إلى ما يعلوهُ مباشرة. كانت شفتاه ترتعشان كما لو أنّهما تغرقان في ترتيل بعض الصّلوات. هناك ضيقٌ عميقٌ ينبعث من كلّ كيانه. يمكن القول إنّه وقد يئس من ضعفه قرّر أخيرا الاستسلام لما هو عليه.

عَاود الجلوس. «في النّهاية، هذا أفضل ما يمكن فعله.» لكنّ هذا الاستنتاج الحكيم لم يجلب إليه السّلام. على العكس تماما. استبدّت به فورة من الجنون. ألقى بسيجارته بعيدا، دون أن يحرص على النّظر إلى مكان سقوطها، دفع كرسيّا بعنف إلى حدّ أنّه دار ثلاث دورات حول نفسه، وراح يركل الحائط برجله. «أنا في طريقي إلى الجنون... أنا في طريقي إلى الجنون...» صرخ مرفقا صراخه بإيماءات عديدة. كانت ثمّة أوراق، كتب، وأشياء أخرى تغطّي طاولة صغيرة. «لا وجود لمحبرة، هذا أفضل.» سحب مفرش الطّاولة بكلّ غضب، كما لو أنّه يريد التّخلّص من قماش قديم. «أين أنا؟ في اللاّمكان. ما الّذي أفعله؟ لا أعرف.» فجأة، عضّ معصمه بوحشيّة إلى درجة أن الدّم انتشر إلى حدود خدّيه مباشرة. وهنا، ارتخت أعصابُه. «شكسبير!» ردّد لأربع مرّات متتالية وهو ينظر بكلّ برود في يده النّازفة. «لا، لستُ شكسبير.» صعدته رعشة قويّة إلى درجة أنّه شارف على التّدحرج أرضا. مازال جرحه نازفا. وضع يده تحت صنبور المغسل ولدقيقة ظلّ يرمق بلا اكتراث كبير الدّم وهو يمتزج بالماء. أخيرا لفّف منديلا حول معصمه. ارتسمت طمأنينة حقيقيّة على وجهه. راح يبحث بعيْنيْه عن السّيجارة الّتي رمى بها. كان قد داسها في ذهابه وإيّابه. التقطها، أشعلها من جديد. «سيجارة المُدان»، كرّر قائلا. وانفجر بقهقهة مجنونة. «المُدان، المُدان... آه! أنا لم أعد أعرف ما أقول... وأنا غير قادر على أن أعرف... إنّكم أمام فتى يمكن أن تعلّقوا عليه كلّ آمالكم... آه! آه! تعلّقوا... تعلّقوا ماذا بالضّبط؟ آمالا...»

انهالت عاصفة ماطرة على النّافذة. إذا كان من الجهة الخارجيّة للألواح الزّجاجيّة الشّفافة الّتي قد تكفي نقرة إصبع لتهشيمها، هناك العاصفة العابرة، الحشود، الأضواء فإنّ من جهتها الدّاخليّة هناك أرنولد، أرنولد الصّغير والمهمل، وهناك الأصوات المتردّدة في الرّواق ورائحة الطّبيخ المتصاعدة من المكتب حيث نساء يعشن حياة ضنكة وهنّ هنا من أجل مساعدة ابن صاحب الفندق على القيام بواجباته المدرسيّة.

جلس أرنولد على حافّة سريره. لقد عقبت الأمطارُ الغزيرة أزمتَه منذ قليل. إنّه يريد أن يبكي. هذا ما سيريحه كثيرا. لكنّ رغبته القويّة في ذلك راحت تمنعه. «أنا أخاف الموت إذن، غمغم قائلا. مع أنّ الأمر سيكون بسيطا. سأنام، من يدري، ربّما سأستفيقُ سعيدا... إنْ لم أستفق، فلن أنتبه إلى شيء.»

جعلت هذه التّأمّلات البسيطة من بطلنا رجلا آخر. كما لو أنّه يسكن غرفة دون علم مالكها، فهو ينهض بحذر ليقترب من الموقد بخطوات خرساء. يلتفتُ مرّتين أو ثلاث ليتحقّق إن لم يكن أحدهم يراقبه. هناك صورة فوتوغرافيّة مشدودة إلى داخل إطار المرآة. هي صورة لامرأة شابّة. تُكتب عليها هذه الكلمات: «إلى عزيزي أرنولد، ذكرى رايموند.» أخذها بين يديْه الاثنتيْن، كما قد يأخذ الممثّل ذكرى مقدّسة ليقرّبها ببطء من شفتيه ويتأمّلها. يعتقد بأنّه مازال يتذكّر هذه المرأة الّتي رافقته إلى «حديقة النّباتات» حيث كانت قد وعدته بالمجيء لكنّها لم تأتِ. في مساء الوحدة هذا، يحسّ بحنين العودة إليها. له أقاربُ رغم ذلك وأصدقاء كثر، لكنّه مدفوع بشعور

جارف لمناجاة العالم بالتّخلّي عن كلّ الّذين بإمكانهم مواساته لصالح امرأة غريبة. لم يبق منها لمدّة سنوات سوى نفس هذا الابتسامة الّتي تتكرّر بالصّورة. كانت قد ركّزت لحظة أمام المصوّر الفوتوغرافيّ لا أكثر، وهذه اللّحظة هي كلّ ما يمتلك منها. هذه الابتسامة، أ لا ترمزُ لِلَحظات الفرح الخاطفة والسّاذجة الّتي طالما وهبتها له الحياة؟

وها هو يحتفظ بهذه الصّورة كما يحتفظ بشيء ثمين. لقد نسيَ بأنّ الشّخص الّذي تمثّله هذه الصّورة هو الآن في منعرج من منعرجات وجوده، يمسكها بين يديْه. لوهلة، يفكّر في تمزيقها، هذه الصّورة الّتي ظلّ يعرضها مدّة ثلاث سنوات لعاملات النّظافة ليثبت لهنّ بأنّه هو الآخر كان قد عاش لحظات جميلة. لحظات لم يفعل خلالها شيئا. أبدا، لا يمكن لِلَحظات غضب أرنولد أن تصل إلى ما لا يمكن إصلاحه. لذلك أعاد الصّورة إلى مكانها ودون أسباب واضحة انفجر باكيا.

انقضت ساعتان ثقيلتان قبل أن ينبس أرنولد بحركة. وكانت بأن تمطّى مثل نائم يخرج من السّبات الّذي عَقِب دموعه. تمطّت تقاسيم وجهه أيضا. وهو مدرك تماما لخموله الجسديّ وللإهمال المنبعث من كامل شخصه، فقد راحت لا جدوى حياته تبدو له أكثر وضوحا. ما الّذي يفعله على هذه الأرض؟ لماذا يقبل بمعاناته إلى هذا الحدّ؟ إنّه لا يفعل أكثر ممّا يفعله مريض يائس لم يستطع الامتناع عن «صنع أطفال» لن ينعم بكفالتهم بنفسه. ما الّذي ينتظره إذن من المستقبل حتّى يرضخ لآلامه بكلّ هذا الصّبر؟

ورغم ذلك، فإنّه من لحظات قليلة، تردّد رنين السّاعة السّادسة

في أنحاء المدينة الأربع، نظر أرنولد في ساعة يده «السّادسة والرُّبع»، اكتفى بالقول. وظلّ خاليا من الأفكار. «السّادسة وخمس وعشرون دقيقة.» الدّقيقة الّتي تمضي، هي دقيقة لم تعد هنا. الوقتُ يمرّ سريعا. هل عليه أن يحزن لذلك أم يفرح؟ «السّادسة والنّصف.»

فجأة، وفي عمق الغرفة المليئة بالغبار ارتسمت فتحة تخلّلتها هالة مضيئة، لمح مشهدا حُلُميّا، أزهارا، سماء زرقاء وفي البعيد رأى أفقا، بدا له جرما متّقدا وكأنّه مركز الكون. مدّ ذراعيه، خطا خطوة ثمّ خطوتين في اتّجاه هذا السّراب. لكنّ الحائط، حائط غرفته الّذي أوقفه ضربة واحدة. وضع يديه على خدّيه في حركة نسويّة بحتة. «لم أعد أحتمل، ردّد متلكّئا. يجب أن أخرج من هنا وإلاّ سأجنّ.»

خلف الباب المقصود، مازال الجار يتحدّث دون أن يتلقّى إجابة. وضع أرنولد قبّعته وخلعها ثمّ أعاد وضعها. لكنّه لم يخرج. «فِيمَ يُمكن أن يخدمني هذا؟ أن أكون هنا أو في الخارج، إنّه نفس الشّيء. ثمّ، الأفضل أن أنتهي من كلّ هذا على الفور.»

قبل أن نَصِفَ الغرفة الّتي يسكنها أرنولد، كنّا قد أشرنا إلى أنّه وفي ظلّ التّرف الكاذب الّذي يهدف إلى ما يسمّيه الملاّكون «القيمة المضافة للإيجار»، فإنّه على الرّغم من ذلك هناك استغلال بدائيّ واضحٌ. فهذه الغرفة كانت في الماضي تمثّ جزءا من شُقّة كبيرة. كان إذن من الطّبيعي أن تُحذف الأبواب الواصلة. وبما أنّ سَدَّها يكلّف كثيرا. فقد تمّ بكلّ بساطة سدّ هذه الأبواب نهائيّا. نفس النّسق الاقتصاديّ قد فَرَض الإبقاء على أنابيب الغاز. إحدى هذه الأنابيب يُلاصق الحاشية السّفلية لغرفة الشّاب لينتهي بصنبور مطليّ على

عجل بنفس الطّريقة الّتي تُصبغ بها الخردوات.

طالما لفت هذا الصّنبور انتباه أرنولد، لكنّ فكرة فتحه لم تخامره مطلقا. هذا المساء، اخترقت الفكرة كلّ روحه. وهو بعد بقبّعة على رأسه، اقترب من المدخنة. كان لوجهه شكل طفل فضوليّ. انحنى وراح يلمس الصّنبور الّذي يشبه بطرفيْه هيئة بعض الحشرات. لكنّ الطّلاء الجافّ جعله غير قابل للاستخدام تقريبا. أخيرا وبعد الاستعانة بمنديل تمكّن أرنولد من فتحه. في نفس هذه اللّحظة، وصل صفير دقيق من الغاز إلى أذنيه. راح يصغي إليه باهتمام لافت. لا وجود لأيّ رائحة واضحة. «غريب ألاّ أكون قد فكّرت في هذه الطريقة قبل الآن»، قال بصوت مسموع. أغلق الصّنبور، وتصاعدت هذه المرّة رائحة خفيفة إلى حدود منخاريه. تراجع إلى الخلف بشكل غريزيّ. تبعته الرّائحة. نهض. واصل الغاز انفلاته بما يشبه الوشوشة. لمح عبر الستائر تموّجات خفيفة تتسربّ إلى واجهة المنازل المقابلة. ما العمل؟ طلبُ النّجدة؟ فتحُ النّوافذ؟ غلقُ الصّنبور؟ أم الانتظار بكلّ صمود، دون حراك إلى أن يطرأ شيءٌ جديد؟

أدار المفتاح الكهربائيّ. بدا له لثانية وفي عمق الظّلام المفاجئ بأنّ كلّ شيء صامت، وبأنّ الغاز قد جفّ مثلما يحدثُ للماء في حوض جبليّ. خطا بضع خطوات متردّدة ثمّ جلس على الأريكة الوحيدة في الغرفة. لم يكن قد ترك بعد قبّعته. ارتخت يداه الخاويتان على ركبتيه. ما الّذي سيحدثُ إذن؟ فجأة، اخترق صفير الغاز أذنيْه المتعوّدتيْن على سكون العتمة من جديد. وقف بقفزة واحدة. لكنّ لا شيء

حدث بعد هذه القفزة. ما الّذي سيتغيّر إذا ما أوقف الصّنبور؟ مُحبطا، جلس متهالكا على الأريكة من جديد. أ لا تقرّبه كلّ لحظة تنقضي من حدث استثنائيّ ما؟ ملأ الصّدر وبعينين مغمضتين، راح يستنشق الهواء المسموم. هل سيفقد الوعي؟ حاليّا، هو في كامل هدوئه. يخامره بوضوح الشّعورُ بأنّ الغاز لم ينتشر بعد بالكمّيّة الكافية حتّى يكون ضارّا، ولا يبقى عليه سوى النّهوض من أجل غلق الصّنبور وهكذا يتداعى كلّ شيء ليعود إلى النّظام المعتاد. وهو ما ينوي فعله في الوقت المناسب.

كان صفير الغاز الّذي يصغي إليه الآن بشكل أوضح من نفخ المرجل، يزوّده بوهم مفاده أنّ حواسّه راحت تزداد حدّة بدل أن تتناقص. إذا ما سألناه في هذه الدّقيقة لماذا يريد قتل نفسه فإنّه سيجيب باستغراب بأنّه لا يملك أدنى نيّة للموت. «هل تريدون حقّا معرفة لماذا فتحت هذا الصّنبور؟ سيواصل بقوله. أ ليْس كذلك؟ هل هذا يشوّقكم؟ حسنا، لا شيء أكثر بساطة. إنّي أحبّ المشاعر الجارفة. أحبّ التّلاعب بالخطر. لكن، لا تخشوا شيئا. عندما تسير الأمور على نحو سيّء، سأغلق الصّنبور، وهكذا يكون كلّ شيء قد قيل.»

بالطّبع، هو لا يفكّر في الموت. غير أنّ الغاز كان يغزو الغرفة، وهو يراقبُ نفسه. من حين إلى آخر، كان يرفع يده للتّأكّد إذا ما كان بعد قادرًا على امتلاك أعضائه، أو يعمد إلى فتح عينيْه، يمرّر لسانه على شفتيْه، يدير رأسه. يهمس، «إلى حدّ هذه اللّحظة، لا وجود لأيّ خطر.»

انقضت عدّة دقائق دون أن يرى أنّه من الضّروريّ القيام ولو بحركة واحدة. أ ليس في كامل وعيه؟ «يبدو لي، راح يفكّر، بأنّني لم أقم بأيّ حركة منذ وقت طويل. لا ينبغي أن تدفعني هذه الثّقة الكبيرة إلى ارتكاب حماقة!» رفع يده نحو جبينه. في نفس اللّحظة، أفلتَت شهقة رعب من حلقه. ما الّذي حدث؟ هل رفع يده حقّا إلى جبينه أم هي وكما يبدو له، ظلّت هامدة على طول ركبته؟

بدا له صفير الغاز شبيها بصفير قطار في اللّيل. إنّه يرحلُ. لكن لا، إنّه هنا، ساكن وعاجز. يريد الصّراخ، فلا صوت يبدر عن فمه. صوته ليس أقلّ من أعضائه، لا يستجيب ومع ذلك هو مستيقظٌ. راحت ألف ذكرى تتصادم داخل عقله. هل يمكن أن يكون قد مات حقّا؟ وهذا الغثيان الّذي يشعر به هل سيدوم إلى الأبد؟ عشر ذكريات تلتحق بعشر أخرٍ. وهي مثل المأخوذة بذعر تبدو وكأنّها تريد الفرار من حول هذا الجسم الّذي على أهبة الموت. في نفس هذه اللّحظة، رأى أرنولد نفسه في مائة مكان. كان في كلّ مكان، لكن في اللاّ مكان، كما لو أنّ لا أحد قادر على أن يدركه. راح ماضيه يتعاقب أمام عينيه، مجرّدا منه. كما لو أنّه لم يعد من هذه الحياة. كان ينادي أمّه واقعيّا لا كما يُشاع عمّا يفعله المُحتَضرون. كان يناديها من أجل أن يُحظى بالتفاتة من أيّ شخص. لا أحد يجيبه. وهو لا يأبه لذلك. لأنّ من خلف المُحْتَضَر هناك رجل يحتفظ بكامل برودة دمه وهو الّذي يسخّر الآن كلّ قواه من أجل هدف وحيد أوحد: الوقوف، وفتح النّافذة.

يداه ملتحمتان بذراعي الأريكة، بينما يحاول التّحرّك، وبالرّغم من

أنّ وجهه حزين وجادّ إلاّ أنّه مازال يحتفظ ببعض علامات اللاّمبالاة. من تكون تلك الفتاة الشّابّة التي لا تكفّ عن الانحناء لالتقاط شيء ما؟ وذاك الضّابط الّذي يشير إلى السّماء بسبّابته؟ كان ضجيج الشّارع يصله على شكل طنين بعيد. ولْتكُنْ عيناه مفتوحتيْن أو مغمضتيْن، فإنّ أمامه نفس مسيرة كائنات غريبة. وهذا الهدير الغازيّ، كما هو دائما، يبدو وكأنّه دمه وهو يتدفّقُ شلاّلا.

على الرّغم من الفوضى الّتي تعمّ ذهنَهُ، والضّباب الّذي يحيط به، كان أرنولد يحتفظ بنفس الرّغبة: فتح النّافذة. يزداد الخلاص صعوبة مع كلّ لحظة تنقضي. ومع ذلك، هو يستسلم. تسترخي يداه، يهوي رأسه إلى الخلف، لكنّ عينيْه تظلاّن متوهّجتين. إنّها ليست أكثر من خدعة. فجأة انتصب واقفا، والأسوأ، وهو ما فاجأه بأنّه لن يتمكّن من معارضة مشروعه.

من وراء هذا التّراخي الواضح كان أرنولد يستجمع أفكاره. كان مثل المحكوم بالإعدام الّذي يقتربُ من مكان تنفيذ الحكم وهو يتحيّن مع كلّ خطوة الفرصة الّتي ستتيحُ له الفرار، وأرنولد كان مستعدّا للقفز بعيدا. إنّه ينتظر. فجأة بدا له بأنّ الوقت قد حان. اهتزّ جسده مطيعا لأمر قطعيّ، امتدّت ذراعاه، تصلّبت رجلاه مثل قطعتي خشب. هي معجزة قد مكّنته من الوقوف أخيرا. كان واعيا تماما بوقوفه هذه المرّة. أراد أن يخطو خطوة. غير أنّه كان عاجزا. نجح بعد بذل جهد أخير بأن يحملَ ثقلَ جسمه برجل واحدة على أمل أن تتحرّر الثّانية وتستجيب بأكثر سهولة لإرادته. وكانت حساباته سعيدة. اتّجهت رجله نحو الأمام. كان أرنولد مبتهجا حقّا.

غير أنّ هذه الرِّجْل لم تُحظَ بأيّ دعم. ففقد توازنه وسقط إلى الأمام.

الحدثُ الغريب هو أنّ هذا السّقوط الّذي دام ما تدومه كلّ السّقطات عادة، قد بدا له طويلا إلى درجة أنّه خُيّل إليه بأنّه قام بما بين ثماني وعشر دورات في الفضاء قبل أن يدرك الأرض.

خيّم الصّمت ثقيلا حوله. لم يَعُد يسمع ضجّة الشّارع ولا حتّى صفير الغاز. لم يعد يُميّز شيئا على الإطلاق. راح يتخيّل بأنّ حجمه يتعاظم بصفة مهولة، إلى درجة أنّ طول هامته أصبح لا يقلّ عن المترين والنّصف. اختفت رغبته في أن يفتح النّافذة نهائيّا. لم يعد ذلك ضروريّا. وقد تحرّر من هذه الرّغبة تماما، أضحى يرى مصيره بتفاؤل أكبر. إنّه يشعر بارتياح كبير. راح يشعر بأنّه لم يكن تعيسا كثيرا وبأنّ الموت ليس أمرا رهيبا وبأنّ حياته لم تكن بائسة إلاّ لأنّه أراد لها ذلك. عمّ اللّون الورديّ كلّ ما لديه من أشياء إلى درجة أنّه أصبح في هذه اللّحظات يمتلك القوّة كي يقف، إذ أنّه لم يفعل شيئا حيال ذلك إلى الآن.

أ لا يوجد كائن محبوب بالقرب منه يتولّى رعايتهُ؟

هذه المرأة، الشّابة والجميلة، الّتي تنكبُّ على وجهه، أ ليست بصدد النّظر إليه بحبّ، أ ليست تلامسه بيديها النّاعمتيْن المليئتيْن بالخواتم، أ ليست بصدد همس بعض الأقوال الحنونة الّتي لا يسمعها لكنّها تتسرّب إلى داخل روحه، سرّا ودون أن تحتاج إلى كلمات؟ أ ليْس حرّا وسعيدا ما دام قادرا على أخذ هذا الجسد المُشتهى إلى حضنه بقوّة، ما دام يمكنه تحسّسه في فراغ ما بين ذراعيه.

- جاكلين، هل هذه أنت؟ سأل بصوت خفيض.

- اهدأ يا حبيبي، اهدأ. إنّي هنا. لكن ما الّذي فعلتَهُ؟

أرنولد لا يُجيبُ. كان بعينيْن مفتّحتيْن على مصرعيهما يتأمّل جاكلين بحبّ وإعجاب. كم تبدو جميلة! كانت تضع قبّعة صغيرة على الجانب حيث حطّ عصفور للتوّ. كانت بشعر رماديّ يتسربل متماوجا من ناحية صدغها الأيسر، وكان متناهي اللّمعان والنّعومة إلى حدّ يجعلك تعتقد بأنّه مرسوم رسما! لها رموش مزرقّة على شاكلة إبر تحيط بعينيْها القمريّتين فتتحوّل إلى ما يشبه الأشعّة. أسفل كلّ ذلك هناك عَقْدٌ من اللّؤلؤ الّذي راح يفضح اضطراب الزّائرة. إذ كان شعرها قد مال قليلا في ذعرها، ليلمع مشبكه الماسيّ تماما في حفرة حنجرتها.

- لطالما ظننتُ يا جاكلين بأنّك لن تأتي أبدا، قال أرنولد بامتنان. كنت أعتقد بأنّي لم أعجبك، وبأنّي سبّبت لك إزعاجا دون أن أعرف. شكرا، جاكلين، شكرا. لا يمكنك تخيّل حجم سعادتي الآن! كنت أريد الموت! كم أرجو عذرك! اعتقدت - نعم اعتقدت بأنّك واحدة من أولئك اللّعوبات المستخفّات، ممّن لا يمكنهنّ إدراك النّبل الّذي يعمّر قلب رجل، حتّى وإن كان هذا الرّجل قد أساء التّصرّف.

- إنّك محموم يا أرنولد. آه! لو لم أكن متزوّجة لكنتُ أصغيتُ إلى حبّي منذ زمن طويل ولكنّا سافرنا أنا وأنت إلى إيطاليا أو إلى اليونان. أوه! صدّقني، لم أنس بأنّه كان عليك تقديم بعض الدّروس الفنيّة لي.

- البندقيّة، همس أرنولد وأغمض عينيْه.

رأى نفسه مُمدّدا على سرير في غرفة تطلّ على البحر. وكانت هي ممدّدة بدورها لتحيطه بيديْها العاريتيْن. كانت الستائرُ مُسدلة. وكان هناك مصباح يضيء الملابس المبعثرة إضاءة خفيفة كما كان ثمّة رخام طاولةٍ مغربيّةٍ لا تحملُ شيئًا. لابدّ وأنّها تُمطر في الخارج. رغم النّوافذ الكبيرة الّتي لا يمكن غلقها كما ينبغي إلاّ أنّ دفئا ناعما راح يعمّ الغرفة. وحدها «التيك تاك» المنبعثة من ساعة البلاتين في معصم جاكلين ما يشوّش الصّمت العامّ. كم السّاعة الآن؟ لا يهمّ. أ ليس أرنولد بصدد عيش أجمل لحظات وجوده؟ أيّ سعادة من سعادات هذا العالم الّتي يمكن مقارنتها بحضن هذه المرأة الآسرة. إنّه يلامس نبضات قلبها بصدره. بنفس الطّريقة الّتي يحصل إثرها على محاباة ما، فيغيّر وجهة المحاورة وهي نفس الطّريقة الّتي وفقها لم يعد يشعر بالخوف من أن يُهجر. لقد جاءته هذه الّتي كان يشتهيها بقوّة. وإنّها تحضنه بين ذراعيها. راح اهتياجها يكشف عن الحبّ الكبير الّذي طالما شعرت به نحوه. إنّها تتابع كل حركة تبدر عن شفتيه، كلّ رفّة تهزّ جفنيْه. هو، إنّه يفتح فاهُ، أكثر وفاء من الظّلّ، وهي تفتح فاها أيضا. إنّه يرفع عينيْه، فترفع عينيْها.

لكنّ الحقيقة وبكلّ أسف هي أقلّ شاعريّة. فأرنولد كان مرميًا على أرضيّة الغرفة، بشعر أشعث، بياقة مفكوكة، بصدريّة طار نصف أزرارها. كان لجسمه بين الحين والآخر هزّة ترعبُ من يراها. لقد تسرّب الغاز إلى كلّ شيء بما في ذلك الرّفوف الدّاخليّة. حتّى أنّ شفتي الشّابّ راحتا تميلان إلى الأرجوانيّ، وملامحه تزداد انتفاخا.

رغم ذلك، كان لا يحسّ بأدنى صعوبة في التّنفّس. كما لو أنّ روحه تحرّرت بالفعل، وأصبحت غير معنيّة بحالة الاحتضار الّذي يعيشها الجسدُ. إنّها تعيش معزولة. وتدرك أنّها في معزل عن أيّ خطر كان. إنّها تحلّق في أعلى هذا المشهد الحزين مثل الغريبة.

فجأة ارتعدت فرائص أرنولد من الخوف. أ ليس هذا الاستسلام الّذي يتسلّى به مجرّد افتتاح للموت؟

- جاكلين! جاكلين! نادى بكلّ ما تبقّى من قوّة. افتحي النّافذة، أتوسّل إليك، افتحي النّافذة.

إنّه يرفض الموت. أ لم تكن السّعادة قد انحنت إلى أعلى وجهه بقليل؟ إذا كان حقّا سيختفي إلى الأبد، أ لن يكون للقدر تلك القسوة بأن يسعفه في اللّحظة الأخيرة. راح في هذيانه يتصوّر بأنّ قوى شيطانيّة قد دفعته إلى الانتحار في نفس اللّحظة التّي سيكون فيها سعيدا. إنّه يصارع، لكن سيكون صراعا بلا نتيجة طالما أنّ أعضاءه بلا حركة. راح كلّ شيء يتهاوى من حوله. هل عليه أن يتمسّك بدعامة سريره إلى أن تُنتزع أظافره. فجأة، وكما لو أنّ الحياة قد فلتت من جسده، انهار أرنولد تماما. راح الشّعور بأنّ باب غرفته قد فتح يغزوه وبأنّ موجة من الهواء الصّافي قد لفحت وجهه وبأنّ ضوءًا ساطعا قد غمره. «أين أنا؟» غمغم متسائلا. هناك ذهاب وإيّاب في غرفته. صرخات تطلب النّجدة. من بين تلك الأصوات تعرّف على صوت جاكلين. فتفاجأ. جاكلين، أ لم تكن تسترخي على صدره؟ لقد كان يضمّها بين ذراعيه منذ قليل، لكنّ الأصوات ظلّت تتردّد في أذنيه بينما المرأة الّتي يحتضنها تظلّ خرساء.

-     هذا مرعب! ما الّذي فعله؟ اطفئوا سجائركم!

استرقَ السّمعَ إلى الضّوضاء بينما كانت الرّيح الباردة تداعب وجهه لتطرد أنفاس جاكلين الدّافئة. كان يريد الصّراخ. في نفس الوقت، ظنّ بأنّه يرى ألف ندفة وندفة مضيئة ترفرف في فضاء الغرفة. ظلّت تعصف طويلا فوقه. في النّهاية، توقّفت كلّها في نفس الوقت. وبما أنّها لم تكن سوى ضوء شمسيّ مبهر فقد انتبه إلى أنّه ممدّد عند أسفل سريره وحيدا وعاجزا عن الحركة. وكانت أضواء الشّارع تتراقص على الحيطان. وكان الهواء وقد أُشبع بالغاز لم يعد قابلا للتّنفّس.

كان سيموتُ لولا أنّ صوت جاكلين تناهي إلى مسامعه من جديد.

- لقد ارتكبْتَ جنونا، يا عزيزي.

كان يريد أن يُجيب لكنّ لسانه وكأنّه انسحق بين فكّيه فعجز على مجرّد الحركة. فتح عيْنيْه. تراءت له امرأة ضئيلة في السّهل البعيد وهي تتقدّم منه بخطى واسعة. بلغت حجم هامة بشريّة في غضون لحظات. إنّها جاكلين. جثت على ركبتيها بالقرب منه وسحبت وسادة إلى تحت رأسه.

- لماذا فعلت بنفسك هذا؟ سألت ببالغ اللطّف. أنت لا تحبّني أم أنّك تشكّ بوعدي؟ كم أشكر السّماء على وصولي في الوقت المناسب! كم كان رهيبا لو خسرتك، أنت، الرّجل الوحيد الّذي عرف كيف يتحدّثُ إلى قلبي.

جالت ابتسامة بالوجه المرهق لأرنولد. هل عاد إلى الحياة؟ فهو يستمتع بهذه اللّحظة مثل مريض يعرف بأنّه مصاب أقلّ ممّا يتوقّع الجميع وهم مذعورن. كم يبدو الهواء نقيًّا على هذا السّهل حيث يتمدّد! إنّه يستنشقه ملء الرّئتين، ومع كلّ استنشاق يشعر بأنّه يصبح أقوى. ارتفع قليلا متّكئا على مرفقه. «الحياة جميلة»، راح يفكّر. ثمّ ترك نفسه ليسقط إلى الوراء لكن كان ذلك كي يُفْزِع جاكلين لا أكثر. بعينيْن مغلقتيْن تظاهر بالموت. وكم كان ممتعا سماع هذه المرأة الّتي طالما رغب فيها، وهي تتوسّل إليه بأن يثبت أنّه حيّ ولو بإيماءة واحدة أو نظرة واحدة وألاّ يفعل شيئا بعدها.

- أرنولد، أرنولد؟ نادت متضرّعة، قل شيئا، حدّثني. إنّي أحبّك.

بعد تردّد قصير، قرّر بأن يبتسم لكن في حزن هذه المرّة، بشكل يجعلها تفهم أنّه إذا ما عاش فسيكون في خطر كأقلّ ما يمكن قوله. لكن وبدل الفرحة الّتي ينتظر بأن يثيرها فيها بانبعاثه هذا فقد ظلّ كلّ شيء ساكنا.

- جاكلين!

لا مجيب.

- جاكلين! جاكلين!

توكّأ على مرفقيه. كانت الغرفة خالية. وحده صفير مملّ ما يصل إلى أذنيْه: وهو ما يخلّفه الغاز في انفلاته. كان يريد أن يقف بها أنّه لم يكن سوى حلم سيّء. لكنّه تهاوى إلى الوراء من جديد رغما عنه هذه المرّة. اصطدم بالأرضيّة. في نفس الوقت راح يسمع توسّلات

جاكلين مرّة أخرى. أ لَم تر بأنّه ابتسم لها؟ أم هل هو ضحيّة لهلوسة ما؟

نادى:

- جاكلين، جاكلين!

- تنفّسْ، لابدّ أنّ تتنفّس، قالت له المرأة الشّابّة آمرة. النّوافذ مفتوحةٌ. سينفرجُ اختناقك عمّا قليل. من حسن الحظّ أنّي شككتُ في الأمر فجئتُ في الوقت المناسب.

رغم ذلك لا يجرؤ أرنولد على الامتثال لأوامرها، مخافة أن يكون مخطئا مرّة أخرى.

- هيّا تنّفس إذن، يا صديقي وعزيزي.

- هل تعتقدين بأنّي قادرٌ حقّا على فعل ذلك؟

- عليك فعل ذلك. هذا يتعلّق بحياتك.

على هذه الكلمات تبخّرت كلّ شكوك بطلنا. فتح فمه ونفخ صدره. ما دام على جاكلين أن تحبّه! فليشعر بأنّه على ما يرام الآن! راح يُخيّل إليه بأنّه يمتصّ ماء عذبا. ارتخت عضلاته. وارتخى صدغاه اللّذان كانا يضغطان عليه. راح يُمْلي أمرا على يديْه، فاستجابتا.

- انهض، واصلت جاكلين بقولها. سوف تتبعني إلى منزلي. أنت تحتاج الرّاحة والهدوء. هنا، لا يتوفّر شيء من أجل ذلك. أنت لست في مكانك. على شابّ مثلك أن يعيش في مكان آخر. هيّا، ابذل مجهودا أخيرا يا عزيزي، بعد ذلك، لن يبقى لك سوى أن تستسلم

للعلاج.

- هل نجوتُ؟ تساءل أرنولد في قلق.

- نعم، لكنّ فترة نقاهتك ستطول يا عزيزي. عليك أن تصغي لي كأمّ، أ ليْس كذلك؟ كما أنّك لن ترتكب أيّ حماقة أخرى، ولا واحدة.

راح يتأمّل المكان وقد تحرّر من قلق مرتبطٍ بالحفاظ على توازنه. كانت النّافذة مثلها مثل الباب مفتوحة. تصله من الرّواق تقطّعات صوتيّة. هناك رجل يمرّ مبتسما من أمامه حاملا حقيبة. هو طبيب دون أدنى شكّ. وقبل أن يختفي، التفت نحو أرنولد.

- يمكنك القول أيّها السيّد بأنّك نجوت من الموت في آخر لحظة.

شيئا فشيئا، راح النّور يتسرّب إلى روح أرنولد. «لقد كنتُ محظوظا»، فكّر. اقتربت منه عاملة النّظافة. بما أنّه وكما هو واضح لم ينجُ تماما، فقد كانت تساعد جاكلين. لم يسبق لكلّ هؤلاء أن يهتمّوا معا بالشّابّ المسكين. لذلك بدا له هذا الاعتناء المفرط والعامّ في غاية اللّطف. كان يريد أن يشكر من عمق أعماق قلبه كلّ هؤلاء النّاس، لكنّه كان عاجزا على فعل ذلك.

- ابذل جهدا صغيرا، يا عزيزي. قالت جاكلين وهي تمسك بنفس الرّقة أرنولد، فسيّارتي في الأسفل.

- سيّارتك؟ تساءل هذا الأخير، الّذي يخشى أن يكون قد أساء الفهم.

- أرى بأنّك لستَ بعدُ على ما يرام. هيّا، لنسرع.

- أودّ رغم ذلك أن أدخل بعض النّظام على هيأتي.

- هذا غير مجد. أنت جيّد هكذا كما أنت. تعال، تعال، أتوسّل إليك، تعال.

راح هذا الإلحاح يُخفي كلّ أثر لوساوس أرنولد. كان يتقدّم مرتكزا على جاكلين في اتّجاه الباب دون أن يلقي مجرّد نظرة على الغرفة الّتي عاش فيها ما يقارب السّنة. عندما رأى الفراغ من أعلى المدارج تملّكه الدّوار. أغمض عينيه وانساق خلفها مكتفيا بالسّؤال قبل كلّ خطوة: «هل أنا قادر على فعل ذلك؟».

وكانت جاكلين تقول له بين الحين والآخر من أجل طمأنته:

- لم يبقَ سوى طابق واحد ونصل.

أمام مكتب الفندق، رفع جفونه أخيرا. انحنى المالك انحناءة ترحيبيّة لهما وقد وجداه على العتبة. خلفه، كانت زوجته وابنته تبتسمان لبطلنا كما قد تفعلان لعائد من الموت، ثمّ حيّوا جميعهم جاكلين باحترام وهي تتقدّم بقبّعة باليد في اتّجاه السّائق. أراد هذا الأخير مساعدة معلّمته في إسناد أرنولد، لكنّها دفعته.

- لا، لا، دع الأمر لي. الأمر يتطلّب الكثير من العناية.

ساعدت بنفسها الشّاب على الصّعود إلى السيّارة، ثمّ عادت أعقابها لتدسّ سرّا بعض الأموال بيد صاحب الفندق. وفي غضون لحظات، انطلقت السيّارة.

مُهَدْهَدًا بصوت المحرّك كان أرنولد يثبُ شيئا فشيئا إلى رشده. لم يسمح رغم ذلك بأن يتفطّن أحدٌ إلى الأمر، راح بعينيْه المغمضتيْن

يتظاهر بالتّنفّس بصعوبة. وكانت جاكلين بجانبه تمسك بيديْه، وتمسح عليهما وتراقب وجهه في أدقّ حركاته. «لو لم تكن لي شجاعة النّظر إلى الموت وجها لوجه، في أيّ مكان سأكون الآن؟» كان يعتبر كلّ ما حدث له أمرا طبيعيّا. بما أنّه فعل ما فعل من أجل أن يكون جديرا بحبّ عظيم، لم يكن يتصوّر بأنّ الخطر الذّي عاشه سينتهي بمكافأة. إنّه في طريقه نحو السّعادة. أخيرا سوف يتمكّن من استعراض ما هو قادر على فعله. «شكرا، شكرا»، قال متوجّها للكائن الّذي يتخيّل بأنّه يسهر على شخصه دون غيره. ماذا يمكنه أن يطلب أكثر من الّذي يُحظى به؟ لقد عاش سنوات عديدة في المكان المشبوه حالما بهذه المرأة المثاليّة الّتي هي اليوم ترمقه بكلّ حبّ. إذا لم يكن قد أعلن عن نفسه إلى العالم إلاّ الآن، فإنّ لديه عذرا: لم تكن قد تفضّلتْ بالظّهور في حياته قبل هذا اليوم. وها قد تغيّر كلّ شيء. ها إنّ حياة جديدة قد انطلقت. لم يكن من أولئك الرّجال الّذي يأخذون دون أن يعطوا. ففي مقابل الحبّ، الرّفاهيّة سيتخلّى عن كيانه بأكمله. الله عليم بكنوز مثل الذّكاء والقلب والطّيبة الّتي تختلج كلّها في صدره وبأنّ الحياة وحدها ما منعها من أن تفقس.

وبعد سباق دام ربع ساعة عبر باريس، في البعيد حيث يرتسم على المرآة العاكسة للسيّارة منطقةٌ ريفيّةٌ وقطارٌ، فتح السّائق الباب. نزلت جاكلين أوّلا متبوعة بأرنولد كأسرع ما يستطيع، ودون تجاهل للهيئة الّتي هو عليها إلاّ أنّه بدا كأيّ شابّ آخر. توقّفت السيّارة أمام امرأة من النّبلاء. شعر الشّابّ بالرّهبة أمام الطّابع الفخم للمنزل والّذي يدلّ على انتمائه لعائلة نبيلة. مأخوذا بدوار، ارتكز أرنولد بكلّ

جسمه على عمود. سارعت الشّابة وقد قطعت محادثتها بالرّكض في اتّجاهه.

- ما بك يا عزيزي؟ كيف تشعر؟

- لا أعرفُ.

- تعالْ، تعالْ، يجب أن تستلقي. سينتهي كلّ هذا. خلال أيّام لا أكثر ستُشفى نهائيّا.

- لا شيء خطير، إنّه مجرّد توعّك بسيط.

بعد لحظات، كان أرنولد يستريح على سرير جاكلين نفسه. ارتسمت على وجهه علامات الشّحوب، لكنّ عينيه المفتوحتين، كانتا تتفحّصان كلّ المكان. لا غير الحرير والأثاث النّادر والفرو في كلّ ركن. وكانت جاكلين قد وضعت فستانا منزليّا بديعا. ظلّت بلا حراك جالسة على حافّة السّرير، لا ترفع عنه عينيها، فقط كانت بين الحين والحين تعدّل من هيئة وسادته.

أ ليس بصدد العيش داخل كابوس، هذا لأنّه، أيّ حلم سيكون أصعب من عيش كلّ هذه السّعادة؟ لكن لا، في كلّ ما يعيش هناك لمسة واقعيّة واضحة. بإمكانه أن يتفحّص أيّ شيء، لا وجود ولو لتفصيل واحد في الظلّ. تُحفٌ، لوحات من الّتي لم ير لها مثيلا في إثارة الدّهشة. نارٌ تشبّ في أخشاب لتلقي أضواء متلألئة في كامل الغرفة حيث يبدو كلّ شيء حميمًا وناعما وغامضا، حيث لا يمكن لهواء الشّارع أو لأنفاس الحشود أن تتسلّل مطلقا. أسدل جفونه. اكتنفه إحساس من الرّفاهيّة كما لم يكتنفه من ذي قبل. شعر بحاجة

ماسّة لأن يسترخيَ، لأن يمدّدَ ركبتيه، لأن يلقيَ ذراعيه بعيدا عنه.

كم من الوقت سيتمتّع بهذه السّعادة الحيوانيّة؟ إنّه لا يعرف ماذا يسمّيها. عندما فتح عينيْه، كان الظّلامُ الدّامسُ يحاصره. نادى جاكلين. لكنّها لا تُجيب. نظر ناحية المدفأة. لا وجود ولو لشعلة تدفّئُ نظرته. ظنّا منه بأنّه مازالَ غارقًا في نومه، جرّ عينيْه في الاتّجاه المعاكس. كان الظّلامُ شديدا هنا أيضا. ومع ذلك، هناك سيّارة تشقّ الصمت في كلّ مرّة. ارتكز على مؤخّرته. فجأة، أطلق صرخة ضئيلة. كان ثمّة عرق باردٌ ينزّ على مدى ضلوعه. وكان فمه جافّا. اندفع الدّم إلى رأسه دفعة واحدة. رغم ذلك، كان جبينه وخدّاه متجمّديْن. راح يظنّ بأنّه يتعرّف على غرفته في الفندق. كان يرغب في الوقوف، وأن يشعل الأضواء، لكنّ يدا حطّت على جبينه.

- اهدأ يا أرنولد، قالت جاكلين. إنّك تعاني من الحمّى. ينبغي أن تبقى ممدّدا. غدا صباحا إذا ما أصغيت إليّ، ستكون أفضل حالا.

- قولي لي أين أنا؟

- إنّك في منزلك يا عزيزي.

- في منزلي، في منزلي، هل أنت متأكّدة؟ يا إلهي، أنا خائف... هذا مرعب.

- لا أنت في منزلي، في غرفتي، لكن لا فرق.

- أشعلي... أشعلي الأضواء... لا أستطيع المكوث أكثر في الظّلام.

أطاعت جاكلين. وهنا تعرّف أرنولد على تلك الغرفة الّتي طالما

أدهشته قبل أن يغفو. نتج عن ذلك شعور بالارتياح العميق. لم يكن يحلم. ها قد انطلق أخيرا ذاك الوجود الفسيح الّذي تمنّاه طويلا.

- لو تعلمين، يا جاكلين، كم أنا سعيد بالقرب منك! أحبّك من زمن بعيد، أبعد ممّا تظنّين إلى درجة أنّي ألتجئ إليك وحدك كلّ ألم وكلّ فرح. تعالي جاكلين تمدّدي إلى جانبي. أريد أن آخذك بين ذراعيّ، وأقبّلك. أريد أن أكون أقرب ما يمكن إليك إلى درجة يصبح فيها جسدانا واحدا.

- غدا يا عزيزي. ليس من الحكمة أن نفعل ذلك اليوم. ينبغي أن ترتاح. إنّي أفكّر في صحّتك قبل كلّ شيء.

- ضعي يدك فوق قلبي على الأقلّ. آه لو تعلمين...

لم يستطع المواصلة. فالباب كان قد فُتح فجأة ليفسح المجال لدخول زوج جاكلين السيّد بورمونت. هو رجلٌ وسيم في الستّين من العمر. وهو من أولئك الّذين لهم طباع ثائرة على البدانة وهو ما راح يثير إعجاب أرنولد ومن الّذين عوض أن تُثقلهم السّنوات فقد خفّفتهم. له شاربان صغيران أحمران، عينان مشرقتان، وأنف دقيق. كانت الطِّيبَةُ تشعّ منه، لكنّها طيبة لا تستبعد الحزم. كان هناك رجُلان يتبعانه. ليس لهما تلك الأناقة الأرستقراطيّة والّتي قد نُشِيدُ بها عند السيّد بورمونت. بأكتافهما العريضة، كانا يمسكان بشكل غير لائق قبّعتيْهما، لقد كانا متعجرفين لكن بشكل ودود.

ورغم ذلك كان لدى السيّد اعتبار مباغت تجاههما.

- جاكلين، توجّه بالقول لزوجته، الّتي انتصبت واقفة وهي

مستاءة من اقتحام كلّ هذا العالم لغرفتها، أعتذر على دخولي عندك بهذه الطّريقة، لكن لديّ ما أقوله لك. حتّى وإن كنّا على مشارف الطّلاق فمازلتُ بعد زوجك، وبصفتي هذه، فإنّه عليّ حمايتك. أوه، اعذريني فالأخطاء لم تكن من ناحيتك فقط بل من ناحيتي أيضا. كان عليّ أن أتوقّع بأن امرأة شابّة وحرّة، بالّذكاء الّذي تتمتّع به، لن تكون قادرة على الصّمود إلى ما لا نهاية أمام الإغراءات الّتي تتوفّر لها، خصوصا وأنّ لها زوجا في مثل حالتي، سيّدا عجوزا.

- ماذا تريدون؟ ماذا يعني حضور هذين الرّجلين؟ أخرجوا... أخرجوا حالاً.

تغيّرت جاكلين فجأة. كان دخول زوجها إلى غرفتها كافيا بأن يجعلها في أسوأ حالاتها، لكنّه كان إضافة إلى ذلك برفقة رجلين لم ترهما من قبل، هذا ما لا يمكن تصوّره.

- سأخرج لكن ليس قبل أن أكرّر على مسامعك ما قيل لي منذ لحظات.

- عمّ تريد محادثتي؟ أنا لا أفهم شيئا.

- الرّجل الّذي أنقذتِه من الاختناق منذ وقت قصير، هذا الرّجل الّذي هناك، النّائم في سريرك، هذا الرّجل الّذي تعذّبين نفسك من أجله، ومن أجله أيضا تتخلّين عنّي، هل تعرفين من يكون؟

شحب وجه جاكلين.

- بأيّ حقّ تسألني هذا السّؤال؟

- سأخبرك حالاً عمّن يكون. إنّه قاتل مزدوج لأحد المبتزّين.

هذه المرّة بدت جاكلين وكأنّ ثقتها قد اهتزّت. التفتت ناحية أرنولد على أمل أن يقول شيئا. لكنّ لا شيء من ناحيته. كان مغمض العينيْن يتظاهر بالنّوم. اقتربتْ من السّرير، ومثل الأمّ الّتي يكون شعور الواجب لديها أقوى ممّا هو لدى أطبّاء جاؤوا للمعالجة. لذلك حالت دونهم.

- لن تلقوا التّهمة على أرنولد ولن يكون ذلك دون عواقب، صرخت فيهم.

أمّا هو فإنّه لم يفوّتْ شيئا من هذا المشهد. كان يحاول رفع الغطاء خلسة وهو يرتجف من الخوف. كما كان يعتقد بأنّه صار مركزا للاهتمام. لكنّه مخطئ. مثلما يحدثُ في المحاكمات وعندما يثير المتّهم مسألة حول حقوقه، يبقى ذلك بلا قيمة كبيرة. فحتّى رَجُلا الشّرطة لم يكلّفا نفسيْهما عناء النّظر إليه.

- إنّي أشعر بالأسى عليك، جاكلين. قال السيّد بورمونت متعاطفا. لقد كنتِ دائما غير مقدّرة للحبّ الّذي أكنّه لك، وبدلا من أن تريْ في إصراري هذا رغبة ملحّة في جعلك سعيدة لكنّك على العكس من ذلك تكتشفين ما لا أعرف من عدائيّة صمّاء. لم أعد غيورا رغم كلّ شيء يا صديقتي العزيزة. لقد جعلتِنِي أفهم بأنّ الجحيم سيكون حياتي لو واصلت على ذاك النّسق من الغيرة. لكنّ واجبي اليوم هو أن أخمد نار كبريائي وأن أحاول جعلك تفهمين لأيّ مخاطر تُعرّضين نفسك. لديّ هذه القناعة العميقة بأنّي أعمل لمصلحتك. وهي ذاتها ما تسمح لي بأن أتراجع عن وعدي بأنّي لن أتدخّل أبدا في مشاعرك. وهذا ما ينسحب على مستقبلك

وسعادتك.

- أعرفُ ذلك. فروحك البرجوازيّة ترفض أن تتقبّل رؤية امرأة تحبّ رجلا دون ثروة. أجابت جاكلين بكلّ جفاء.

- هذا إن توقّفت الحكاية هنا، لا يمكن الحكم على هذين السيّدين بأنّهما يزعجان نفسيْهما عبثا.

- لقد بدأت أقتنع بأنّ هذه المزحة قد دامت أكثر ممّا تستحقّ، يا سيّد بورمونت.

- الرّجل الّذي يختبئ خلفك في هذه الآونة، الجبان الّذي يترك لامرأة مهمّة الدّفاع عنه، إنّما هو قاتل، أنت تسمعينني جاكلين.

- هذا غير ممكن.

- أكرّر بأنّ هذا الرّجل قاتل.

- وأنا أكرّر بأنّ ذلك غير ممكن.

- كانت الشّرطة تلاحقه منذ ثلاثة أيّام. وقامت منذ ساعة بتفتيش منزله. ودون أن تشكّي في الأمر، فأنت بإنقاذه من الموت الّذي التجأ إليه هروبا من العقاب كنت قد خدمت العدالة! لذلك جئت لأطلب منك أن تواصلي إراديّا ما كنت قد بدأته لا إراديّا بأن تسمحي لهذين السّيّدين بتأدية مهمّتهما. قد يبدو لك أسلوبي غريبا من الوهلة الأولى. وقد يبدو لك دون شكّ بأنّ ما أقوم به إنّما هو بفعل الحقد الّذي تمليه عليّ مهمّتي بوصفي رئيسا لوفد رسميّ. لا تصدّقي ذلك. إنّ مصلحتك وحدها ما تملي عليّ تصرّفي هذا. عندما قدم هذان السّيّدان ليقولا لي «هناك قاتل في منزلك»، كنت قد

تخيّلتُ مباشرة كلّ ما حدث. الآن، ليس لي سوى فكرة واحدة، يمليها عليّ الحبّ الّذي لم أكفّ رغم كلّ شيء على أن أكنّه لك: أن أجنّبك مشهدا مؤلما. توسّلت لهذين السيّدين بأن يسمحا لي بتجنيبك صدمة الخبر وبأن أهيّئك له. وقد وافقا. عليك مثلي تماما أن تشكريهما على ذلك.

- هذا فظيع.

- هذا ما سيكون لك درسا للمستقبل.

- أرنولد قاتل! لا، لا، لا، لن يمكنني تصديق ذلك أبدا.

يحدثُ دائما أن يرتبط مصيرنا بكائن وثقنا فيه دائما ثقة عمياء. في مثل هذه اللّحظات، يتسرّبُ الشكّ إلى داخلنا، هذا لأنّه ومهما كانت مشاعر الحبّ أو حتّى الصّداقة قويّة، فإنّنا نبقى غير واثقين تماما من إمكانيّة أن تجرّ المصلحة الشّخصيّة هذا الكائن إلى ما يفوق كلّ تلك المشاعر. كان أرنولد يرمق جاكلين برعب لم يفكّر حتّى في إخفائه. في اللّحظة الّتي لمس فيها السّعادة أخيرا، هل كان ينبغي على ماضيه أن يأتي ويهشّم كلّ شيء.

لكنّ المفارقات الّتي ينسبونها إليه بعيدة كلّ البعد. على جاكلين أن تعلم بأنّه أصبح رجلا آخر. على جاكلين أن تسامحه أيضا على كلّ أخطائه. لماذا إذن يبدو مرتعبا بسبب ما يكشفه زوجها؟

- جاكلين، غمغم قائلا بشكل لا يمكن سماعه إلا من طرفها.

لم تُجب السيّدة بورمونت لكنّها سلّطت نظرتها على نظرته.

- هل هذا صحيح؟ سألت في النّهاية.

- لا، لا هذا غير صحيح. إنّهم يريدون انتزاعي منك. إنّهم يحسدونني على السّعادة الّتي تنتظرني. أحبّك.

تقدّمت جاكلين من زوجها بعد أن تركت أرنولد يردّد جملا غامضة وهو منجرف بحبّه.

- أنت تكذب، قالت له واثقة. أنا لا أصدّقك.

رغم كلّ التّصرّفات الّتي كانت لزوجته إبّان زواجهما مباشرة، ظلّ السيّد بورمونت يحبّها كما هو دائما. قبل أن تنجذب لأرنولد، كان قد سامحها على عدّة أخطاء أخرى. لقد كانت تعود إليه في كلّ مرّة لأنّ صبره وطيبته كانا فسيحين. أبدا، لم يترك كبرياءه ولا غروره ولا انفعاله فرصة التفوّق على مشاعره. إنّه يعرف تماما، بأنّها لولاه، لظلّت تعيش حياة امرأة فقيرة وفي نفس الوقت برغبات غير مشبعة. يعرف تماما بأنّها لولاه لكانت سقطت إلى أدنى مستوى ممكن. فبالرّغم من معارضة كلّ عائلته وكلّ أصدقائه قرّر بأن يجعل منها امرأته. وها إنّ هذا الرّجل بالإضافة إلى كلّ ذلك بصداقة كان أو بغيرها، ها هو يتجاهل كلّ الألم الّذي يشعر به ولا يملّ حتّى وإن كانت جاكلين بصدد البحث عن أعذار لأكثر الأفعال دناءة. وكأنّ القبح يكفّ عن الوجود كلّما تعلّق الأمر بالمرأة الّتي يحبّها. عندما يكون رجلا تحت هيمنة امرأة إلى هذه الدّرجة، عندما يكون قابلا لكلّ شيء من أجلها مثل عداء عائلته وفقدان أصدقائه فمن الطّبيعيّ جدّا ألاّ يتخلّى عنها في مثل هذا الظّرف حتّى لا تضيع ضياعا نهائيّا.

اقترب من جاكلين، أطال النّظر إليها بشغف. لم تخفض عينيها. ولم

أومأت استهزاء.

تكتف بعدم الإجابة على إشارات اللّطف هذه بل هذا لأنّها تكره هذا الرّجل الّذي تتوفّر له الحياة والثّراءُ. تكرهه كما قد يكره أجيرٌ مجبر على العمل من أجل بلوغ منصب رفيع كلَّ من يتوفّر له هذا المنصب بسهولة. لقد كانت دائما غيورة من ثراء السّيّد بورمونت. ولن تسامحه على القوّة الّتي كان دائما ما يتمتّع كنتيجة لثرائه. كانت دائما ما تتمنّى إفلاسه من أجل أن تُخضعَهُ بكلّ حرّية. هذا الثّراء ذاته ما يخفي عنها كلَّ الصّفات الجميلة الّتي تميّز زوجها. فقد ظلّ في نظرها ذاك الرّجل الّذي أُجْبِرَتْ على الزّواج منه. لذلك سيكون من دواعي سعادتها العظمى بأن تنتقم منه بخيانته. ولأنّها متأكّدة من حبّه لها، فقد راحت تقترف كلّ ما من شأنه أن يجعل صبره ينفدُ مع أنّها تعرف بأنّه صبر غير قابل للنّفاد. لكنّ السيّد بورمونت الّذي لا يجهل هذا التّدنّي، ظلّ يُحبّ زوجته كما أحبّها أوّل يوم. راح يقابل القسوة الّتي تدفعه لإذلاله ونكران كلّ مزياه بحنان لا نهائيّ. ومع مرور الوقت، انتهى هذا الحِلْمُ المُوزّع جزافا إلى مباغتة المرأة الشّابّة. لكنّها وبما أنّها ليس في مقدورها الاعتراف بأنّ لزوجها مثل رفعة المشاعر هذه، فإنّ شكّا بغيضا إلى درجة لا تُصَدَّقُ ولا تجرؤ حتّى على الاعتراف به فتحاول إقناع نفسها بقولها: بما أنّ السيّد بورمونت يتحمّل سوء سيرتها هذه فلأنّه يتمنّى أن يُقْبَلَ يوما ما ضمن حميميّة قصص حبّها.

تحوّل هذا الشّكّ تحت نعرات الغضب المتواتر إلى يقين. فقد أفشته جاكلين ذات يوم عندما أفلتت أعصابها. لم يرتبك. بل حاول بطيبته المعهودة أن يهدّئ من روع هذه المرأة الّتي يحبّها، بأن يجعلها تُصغي

إلى صوت العقل. لكن وبعيدا عن هذه التّهمة وبما أنّه لم يفعل شيئا من أجل الدّفاع عن نفسه، فقد ظلّت جاكلين مقتنعة بأنّها لم تكن مخطئة.

- أعتذرُ، قال السّيّد بورمونت، أعتذر على التّدخّل في أشياء لا تخصّني، كما كنت قد أشرتِ إلى ذلك بلباقة، لكنّي هذه المرّة أظنّ بأنّه من واجبي أن أفعل، حتّى وإن تسبّب ذلك في خسرانك نهائيّا. أنت تجهلين ما حدث بالفعل. وأنت بعيدة كلّ البعد على الشّك في دناءة هذا الرّجل الّذي وضعت فيه كلّ ثقتك. إذن اسمحي لي بأن أطلعك عليها. أوه! لا تظنّي بأنّي أبحث عن جني فائدة خاصّة من وراء هذا الكشف. لم تعيري يوما اهتماما بحجم الطّيبة الّتي أدّخرها لك. ها إنّي أعوّل عليها مرّة أخرى هذا لأنّي لم أتصرّف بعد إلاّ لصالحك. عليك أن تعلمي جاكلين، بأنّه وبالرّغم من صراخك وغضبك وخطاياك إلاّ أنّك ضعيفة ولا تملكين غيري للدّفاع عن نفسك. إنّ هذا الرّجل الّذي تحمينه بنبل والّذي يسمح لنفسه بأن يعيش في حمايتك قد عرف كيف يغوي نساء أخريات غيرك. فقد كشفت تحقيقات الشّرطة بأنّه كان يعيش دائما على الإعانات الّتي تقدمها له عشيقاته. ومن سوء حظّه هذه المرّة أن أراد أن يبالغ في شجعه. فالمرأة الّتي سبقتك....

- كفى... كفى... صرخت جاكلين.

- دعيني أنهي. المرأة الّتي سبقتك كانت زوجة موظّف شريف. لم تكن ثريّة. فمن أجل تلبية طلبات عشيقها، كانت تلتجئ إلى صديقاتها ولوالديْها. لكن ومهما فعلت لم يكن كافيا. هل تعرفين ردّة

فعل هذا الشّخص الّذي هناك فوق سريرك. لقد هدّد هذه المرأة المسكينة بأن يفضح السّرّ. فقدت عقلها وفي أوّل فرصة اعترفت لزوجها بكلّ شيء. كان رجلا ذا قلب كبير. وبالرّغم من ألمه، فقد قرّر بأن يحمي زوجته، بأن ينقذها من يدي هذا الشّخص التّعيس. لذلك ذهب إلى الموعد الّذي حدّدته معه بدلا منها. نتج عن ذلك اللقاء مشهد عنيف بلا مثيل بين الرّجلين. وكان عشيقك أرنولد، كما أعتقد، بعد أن جنّ جنونُه، قد هرع إلى رقبة زوج المرأة الّتي يدّعي حبّها. وتلا ذلك صراعٌ حامي الوطيس. الأوّل شابّ والثّاني شيخٌ مسنّ. لم يتأخّر المسنّ على أن يكون في الأسفل. كان متهالكا من التّعب. وكان ينبغي على غيض المعتدي أن يختفي إذن، فلم تعد فائدة من الإصرار. ودون أن يهتمّ بمصير الضحيّة لاذ بالفرار معتبرا أن ذلك هو عين الحكمة. وهكذا تمّ نقل الموظّف المسكين إلى داخل صيدليّة. وكان كلّ العلاج الّذي تمّ تقديمه له من أجل إنعاشه بلا فائدة تُذكر. لقد مات مختنقا. إنّك تحبّين قاتل ذاك الرّجل يا جاكلين. لا، رغم كلّ البداهة، لا أكاد أصدّق ذلك.

كان أرنولد قد سمع كلّ شيء. كان يرتعدُ. وكان الخوف قد أعطى لوجهه مسحة من القبح المثير للاشمئزاز. أصبح فمه مائلا. بينما ارتسمت عليه علامة مُجرم منقاد إلى المقصلة. ظلّ أمله الوحيد في جاكلين وظلّ يعتقد بأنّها لن تتركه في مهبّ مصيره الحزين. وهو لا يفكّر لا في الدّفاع عن نفسه ولا حتّى تبرير ما فعل. ومثل أحد رجال الملك وهو من سيحصل على المرأة المفضّلة لدى هذا الملك، راح يتابع كلّ حركة تبدر هنا وهناك.

مستغلاّ للبرهة الّتي توقّف فيها السّيّد بورمونت مرهقا، أمسك بيدَيْ جاكلين.

- إنّهم يريدون تفرقتنا. غمغم بقوله. لكن، عديني بأنّك ستظلّين وفيّة لي مهما دسّوا لنا من دسائس. إنّهم غيورون من سعادتنا.

أمّا عن الشّرطيّيْن ولم تحن بعد ساعة تدخّلهما الفعليّ في المشهد، فقد ظلاّ يتناقشان حول الخلافات المهنيّة الصّغيرة، بما في ذلك ظلم رئيس فرقتهم الّذي تعرّض للمحاكمة بعد أن بجلّ أحد زملائهم، لأنّ هذا الأخير وبكل بساطة كان قد تزوّج من أخت صديق طفولة المحافظ.

- أحبّك، أرنولد.

بثّت هذه الكلمات الحياة في بطلنا، لكن لِلَحظات لا أكثر. فجاكلين وبعد أن عرفت الحقيقة، أ ليست بصدد خداعه باشمئزاز؟ ما النّبيل فيه إذن، ما العظيم فيه حتّى يكون أهلا لهذه السّعادة؟ أيّ حجج سيعتمد لإقناع السيّدة بورمونت بجدّية حبّه؟ كلّ شيء فيها يتحدّث ضدّه. عيناها الجميلتان، دفء صوتها، وجهها الصّريح، الطّاقة المنبعثة من جسدها، ما الّذي في وسعه فعله تجاه رجال صمّموا على إرباكه؟

وضعت جاكلين يدا على جبين الشّابّ وتمتمت قائلة عدّة مرّات: «إنّه محموم...»، ونظرت إلى زوجها نظرة لوم.

- لا، قال السيّد بورمونت بكلّ لطف، أنا لا أبحث لك عن المتاعب. أحبّك كثيرا. لكن ينبغي أن أقول لك إنّ هذا يكسر قلبي،

وإذا ما ظللت تصرّين على موقفك، فإنّي مجبر على التّصرّف بشكل آخر. الرّجل الّذي تدافعين عنه بكلّ هذه الضّراوة، أكرّر لك بأنّه قاتل.

- أعلم ذلك، قالت جاكلين دفعة واحدة حتّى تثبت أنّها ليست بصدد التّظاهر.

- وتنحطّين إلى درجة حمايته! حقيقة، لم أكن لأتوقّع بأنّك ستصلين إلى هذا المستوى من التّدنّي.

في هذه الآونة، وبجهد أدّى إلى شدّ في عروق رقبته، رفع أرنولد رأسه وفي شبه وشوشة قال لحاميته:

- هذا لا يخصّه. إذا ما كان لأحد أن يتحمّل تبعات أخطائي، هي أنت وهو أنا ولا يمكن أن يكون هو. بما أنّك تحبّينني رغم كلّ شيء، كلّ ما عليه هو تركنا في سلام.

كانت هذه الكلمات قد رُدِّدت بمعنى مناسب غير متوقّع من رجل كان من ساعة مضت يحاول القضاء على نفسه. واصل بنفس النّسق:

- المهمّ في الأمر أنّك تسامحينني، جاكلين. وقد سامحتني، أعرف ذلك.

قاطع السيّد بورمونت الشّابّ قائلا:

- لا يخصّ الأمر معرفة جاكلين، إذا ما قبلت بهذه الجريمة. فإقرارك ليس عذرا، خصوصا وأنّك الأخيرة القادرة على تكوين موقف حول موضوع كهذا.

خيّم صمتٌ ثقيلٌ. جاكلين لا تجيب. هل هي كلمات زوجها أو كلمات أرنولد ما يغرقها في مثل هذا الذّهول؟ إنّها ضائعة.

- الأمر صحيح إذن؟ سألت أرنولد بصوت مرتعش.

- لكن لا... لا... ردّد هذا الأخير متلعثما، وقد أدرك فجأة بأنّه تكلّم كثيرا. ما أردتُ قوله هو: حتّى وإن كان هذا صحيحا فلا ينبغي لأيّ شيء أن يتغيّر بيننا.

- لقد قتلت إذن، أنت الّذي وضعتُ فيه كلّ ثقتي؟ كان بإمكانك فعل أمر مثل هذا؟ وقد أخفيته عنّي! وأنت تعلم بأنّك مجرم إلاّ أنّك تركتني أحبّك! هل تدرك مدى سفالتك؟

كان أرنولد مصدوما. بِمَ يمكنه الإجابة الآن؟ تحت وطأة اليأس، اتّخذ وجهه شكلا مُرعبا. كم مرّة اعتقد بأنّ السّعادة قد أصبحت بين يديه! فلم تكن يداه لتمسكا سوى الدّخان! سيكون الأمر هكذا إذن! إنّها حتميّة تلقي بظلالها عليه. لا ينبغي أن يكون سعيدا على الإطلاق. حتّى وإن تعمّد خداع مصيره، وتمكّن بأن يكون سعيدا من ورائه، فإنّه سرعان ما يعيده عدوّه الخفيّ هذا إلى صفّ التّعساء حيث هو منذور دائما.

وجاكلين أ لم تكن قد ابتعدت بالفعل؟ لم يعد بمقدوره سماع ما تقول. لكنّها، تتكلّم... تتكلّم... في حين أنّ الرّجلين الوحشيّين، أ ليسا بصدد الاقتراب دون أن يُرخيا شفاههما؟

أراد أرنولد القيامَ، رفض جسده المتصلّب الانصياع. راح ينظر حواليه. لم تعد جاكلين سوى كائن بعيد بلا معنى، بدا كأنّه بصدد

استعراض درس مدرسيّ. راح يستمع إلى صفّارة إنذار وهي تتردّد طويلا في عمق اللّيل البهيم، هناك صرخات، دمدمات صوتيّة آتية من الغرفة المجاورة. تهاوى السيّد بورمونت فجأة على أريكة وغرق في النّحيب، وهو ما يُسعد أرنولد الّذي وهو يحاول أن يلفّ نصف لفّة اتّجه الشّرطيان نحو قليل الحظّ. أ هو صوت يردّد في هذه الآونة: «إنّنا نمسك به»؟ من أين يصدر هذا الصّوت؟ لقد كان من المستحيل قوله.

- إلهي، إلهي، إنّي أتألّم... قال السيّد بورمونت ما بين نوبتي بكاء.

- خذ هذا الكوب من الماء.

- لا... لا... لا أريد شيئا...لا شيء... جاكلين... جاكلين...

كانت هي الأخرى منهارة على الأريكة تبكي. برغبة في أن يكونا نافعيْن لشيء ما، كان الشّرطيان لا يعرفان أين يتوجّهان. وكأغرب ما يمكن أن يحصل، كانا قد نسيا السّبب الحقيقيّ من وراء مجيئهما إلى هذا المكان. لم يعودا مهتمّيْن بأرنولد. صار كلّ ما يشغلهما هو أن يرضيا السيّد بورمونت، بأن يحوزا على عرفان منه.

من خرقة غير قادرة على التّحرّك، أصبح أرنولد رجلا صلبا فجأة. وكان رغم ذلك يخفي هذا التّغيير. ببطء حذِرٍ تسلّل إلى خارج السّرير. وكصدفة سعيدة كان الجميع قد أداروا إليه ظهورهم في تلك الأثناء. راح يتقدّم على رؤوس أصابعه قاصدا الباب الذي كان نصف مفتوح. جذبه إليه بإصبع واحدة. هل سيتفطّنون لهروبه؟ ظلّ يسير على مدى ممرّ ضيّق مُنار جزئيّا بمصباح كهربائيّ صغير.

اعترضت سبيله مدارج. نزلها. عندما وصل إلى الطّابق الأرضيّ وجد نفسه في ردهة مظلمة. اخترقها دون تعجّل حتّى لا يعطي الانطباع بأنّه بصدد الفرار. مع أنّه كان وحيدا. لكن وبما أنّه لا يعرف المكان، فقد كان يخشى أن يكون مراقبا من بعض المكامن المجهولة.

وعلى الرّغم من أنّه كان يشعر بارتياح كبير إلاّ أنّه لا يجرؤ على الاغتباط كثيرا بما أنجز. أ لن يحدث له ما يحدُث لذاك الّذي جاءه صديق ليزفّ له بشرى قبل وصول المراسلة الرّسميّة؟ كانت كلّ لحظة تقرّبه من برّ الأمان، لكن أ لا يمكن أن يحدث بأن تنقضّ فجأة يدٌ على كتفه ليصرخ في وجهه صوتٌ بغيض؟ من حسن الحظّ ألاّ شيء حدث من ذلك كلّه. كان الوقت يمرّ راسما فجوة راحت تتوسّع شيئا فشيئا بينه وبين ملاحقيه. مازالت سفّارة الإنذار تعوي دون انقطاع ليسمع أصوات وافدين من كلّ النّواحي وضجّة ذهاب وإيّاب متواتريْن. وكحال الّذي يجد نفسه في خضمّ اضطراب لم يكن السّبب فيه، كان لا يشعر بين كلّ ذلك سوى بالهدوء العميق!

كان الباب مغلقا. لم يبد أيّ مفاجأة. اقترب من نافذة فأزاح عنها ستارة وفتحها ثمّ قفز إلى الحديقة. من بين الأشجار والنّباتات راح يرى صفّا من الحافلات المُنارة. اتّجه صوبها على الفور. لكنّ حاجزا مفاجئا بطول بضعة أمتار صدّه على التّقدّم.

لِوهلة، تملّكه رعبٌ مجنونٌ. هل ستتمّ استعادته في اللّحظة الّتي تنفّس فيها هواء الحرّية الّذي راح يتخلّل القضبان الحديديّة على شكل لفحات تداعب وجهه؟ اخترقت روحه فكرة سجين: سيهرب من الباب إذن.ساير الحاجز إلى أن وصل إلى المدخل

الرّئيسيّ. ثمّ مرّر يدا من خلال القضبان ورنّ الجرس في الخارج كما قد يفعل أيّ زائر. وبقلب خافق، ظلّ ينتظر. فجأة سمع «كِلِيكْ» خفيفة. إنّه الباب وقد فُتح. دائما بنفس الإصبع، جذب الباب إليه. لقد أصبح حرّا. عَبَرَ حديقة ثانية وهي عموميّة هذه المرّة. وبما أنّه كان يقترب من مفترق طرقات مضاء والّذي كان قد لمحه من خلال الأشجار فإنّ فرحه قد تعاظم. ومثل أولئك الّذين انتهى بهم أمل مغامرة ما إلى غابة معزولة، فقد كان من اللّطف أن يجد نفسه بين النّاس، أن يخرج من عزلته، أن ينتمي لهذا الحشد الّذي بينه يتواجد أخوة وكائنات مشابهة له. وهو ضائع بين الأعداد المهولة، أصبحت أخطاؤه أقلّ ثقلا. وحده الله من يقرأ داخل روحه. أمّا هو، على الأقلّ، فبإمكانه أن يقرأ في الجميع، الخيرَ كما الشّرّ.

كان في المحطّة النّهائيّة أناسٌ بملامح طيّبة ينتظرون خروج الحافلة. سيكون من الملائم جدّا لأرنولد بأن يندسّ بينهم. راح مثله مثل جيرانه ينتظر بفارغ الصّبر. لا أحد ينشغل به. للجميع نفس الشّاغل وهو أن يسمعوا جرس انطلاق الرّحلة، وهذا ما يجعله شبيها بكلّ من يحيطه. لكنّ الخوف بأن يتمّ التّعرّف عليه فجأة راح يعكّر صفوه. غادر مبتعدا ومتظاهرا بالنّظر بعينيْه بحثا عن السّاعة الكبرى. ثمّ، ومثل الّذي اتّخذ قرارا مفاجئا، انطلق مباشرة في الاتّجاه الأماميّ، بتلك الخطوة الواثقة الّتي يقوم بها أولئك الّذين تدفعهم حساسيّتهم فيعتذرون للانسحاب من أجل الانفراد.

راح لمدّة ساعة كاملة يلعب لحسابه الخاصّ - هذا لأنّ لا أحد تمكّن من اقتفاء أثره - كوميديا الإ سراع بالعودة إلى شقّته. كان المطر

الّذي توقّف قبل قليل قد عاود الهطول أكثر عنفا. أنزل حوافّ قبّعته اللُّباديّة حتّى لا تتجمّع بها المياه الّتي راحت تنزّ كما يحصل على سطوح المنازل الحادّة. أحيانا، يتوقّفُ لبرهة قصيرة، من أجل التّخلّص من إحساس الاختناق الّذي كان يستبدّ به على فترات منتظمة.

إضافة إلى مظهره البائس فإنّ الإحباط راح يتمكّن منه شيئا فشيئا. الانتحار، حبّ جاكلين، الفرار، كلّ هذا ما كان يُخْفِي إلى حدّ الآن الجريمة البشعة الّتي ارتكبها. لقد كان يريد الموت وها هو على قيد الحياة رغم ذلك. هو تدخّل شبيه بمعجزة من طرف جاكلين، ما أنقذه. لكن من تكون تلك المرأة؟ كيف حدث بأن تسرّبت إلى حياته في الوقت الّذي لم يعد بمقدور شيء استردادها؟ إنّه لا يفهم شيئا على الإطلاق. راح كلّ شيء يتبخّر من حوله. ليبقى وحيدا مع غلطته وندمه. لو تمكّنوا من إيقافه في تلك اللّحظات، ماذا كان بيده حتّى يبرّر فعلته؟ لا شيء. إنّها دقائق حاسمة.

توقّف من جديد، وليس من أجل أخذ نفَسٍ هذه المرّة. «الرّجل الّذي بلا عائلة، بلا أصدقاء، بلا ثروة، ماذا يمثّلُ إذن على هذه سطح الأرض؟ هكذا راح يفكّر. أيّ كائن سوف يضع على عاتقه مهمّة الدّفاع عنه؟ نعم، لقد قتلتُ موظّفا بسيطا لأنّ زوجته لم ترد إعطائي بعض النّقود. قتلتُه لأنّه كان صادقا ولطيفا ومتسامحا. كنت أنا وزوجته قد خُنّاه. ورغم ذلك اضطلع بمهمّة حمايتها، ومات من أجل ذلك... هذا هو الانسان الّذي أنا عليه... أبتزّ امرأة، يدافع عنها زوجها... لا يهمّ كلّ ذلك... فأقتله. كنت أريد أن أكون حكيما

ولم أحلم إلاّ بالرّفاهيّة والثّراء. ما الّذي أستحقّه، عقابا أم شفقة أم حبّا؟ ماذا أنا على سطح هذا الكوكب؟ أوه! جاكلين لماذا تخلّيتِ عنّي؟ لماذا لم تريْ تلك النّقطة النّقيّة الّتي في أعماق قلبي. أبدا، لن يحبّك شخص مثلي في هذا العالم. ولكنّ الخوف تملّكك، وتجنّبتِنِي كما قد نتجنّب مصابا بالطّاعون. لو فقط أخبرتني عمّا يمكن أن أفعله حتّى أنقّي حياتي في نظرك؟ لكن لا شيء. لم أعد موجودا بالنّسبة إليك. لن يكفي أعظم إخلاص ممكن ولا أعمق حبّ على إقناعك. لا يبقى لي سوى أن أكرّر لك هذه الكلمات، حتّى وإن بدت متناهية الغباء: «آه لو كنتُ أعرف...»، نعم، لو كنت فقط أعرف. لكن فِيمَ يمكن أن تنفع هذه الكلمات من أجل العودة إلى الوراء؟ لا أعرف. ها هنا مصيبتي، وها هنا الحقيقة. لطالما خلت أنّي كائن استثنائيّ. في سكون غرفتي، خلت أنّ لله مودّة خاصّة بي، وأنّه كان ينتظر منّي إنجاز أشياء عظيمة لفائدة العالم. لطالما خلت بأنّ صغري كان السّبب الوحيد لعجزي. ظللت أنتظر أن تحين ساعتي. أمّا الآن فقد انتهى كلّ شيء. قتلت رجلا عاجزا، وإذا ما كان إخوتي من سيحاكمونني اليوم فسيكون ذلك بلا رحمة. سيكون الأمر بالنّسبة إليهم لعبة جميلة، هذا لأنّه لا يوجد شيء في حياتي من شأنه أن يجلب لي بعض الشّفقة. كلّ ما يستحقّ في داخلي بأن يكون محبوبا ومثيرا للإعجاب لم يحن وقته بعد ليطفو على السّطح. من هذا الّذي يؤمن بفضائل مخبّأة، ولا وجود لحركة أو كلمة لتكشف ولو فضيلة واحدة؟ أردتُ الموت لكنّي لم أمت. كيف سأتمكّن من الانتصار على هذه الإرادة؟ لن يصدّقني أحد. سيتّهمونني بالتّظاهر. ومع ذلك،

إذا ما كنتُ هنا في هذه اللّحظة في هذا الشّارع، رغما عنّي، فذلك بسببك أنتِ، يا جاكلين. لقد انتظرتُ من أجل أن تأتي عندي في اللّحظة الوحيدة الّتي لم أكن فيها مستعدّا لذلك. ماذا يعني ذلك؟».

استعاد أرنولد مسيره. كان يشعر بالحاجة إلى الاعتراف. إنّه يتألّم في وحدته. إنّه يتألّم لكونه قاتل. هناك في هذه المدينة الّتي فيها وجد نفسه، مع أنّه لا ينتمي إليها، مكانٌ واحد حيث يمكن أن يُستقبل بنوع من الفرح.

سرعان ما وصل إلى حيّ فقير. بعد أن تسكّع عبر الأزقّة الكريهة اللّانهائيّة، توقّف أمام عمارة متواضعة. وبعد لحظات بدا فيها متردّدا، قرّر في النّهاية بأن يرنّ الجرس.

وهو يمرّ من أمام مقصورة الحارس غمغم باسم غامض. عَبَر بعد ذلك فناء وصعد سُلّما مظلما وضيّقا ليتوقّف أخيرا في الطّابق الرّابع.

لم ير أمّه منذ ثلاث سنوات بعد شجار دار حول مسألة الاهتمام. هي امرأة فقيرة ومريضة يقتصر معاشها على الدّخل البسيط الّذي تخصّصه لها وزارة الشّؤون الاجتماعيّة بما أنّ زوجها كان قد قُتل خلال الحرب، يمكن إضافة بعض الملاليم الّتي تجنيها من وراء أعمال الخياطة البسيطة. كانت دائما ما تفكّر في ابنها. لقد أساء التّصرّف لكنّها لا تحمل ضدّه أيّ ضغينة. فقد كان في عينيْها ضحيّة مخالطات سيّئة، لكنّ عمق طباعه طيّب جدّا. إنّها ليست غاضبة منه البتّة لأنّه تخلّى عنها، ولم يقدّم لها شيئا يُذكر، هي العجوز المريضة، وهو الشّابّ الّذي يتمتّع بصحّة جيّدة. لقد نَسِيَتْ مع مرور الوقت

غضبها حينما جاء ليطلب منها بعض النّقود، ولمّا رفضت نعتها بالأنانيّة صارخا في وجهها بكلّ قسوة قائلا بأنّها لم تعد تحتاج شيئا بما أنّها عجوز.

وجد أرنولد أمّه بصدد الخياطة. عندما لمحته، أطلقت صرخة طفيفة وخلعت نظّارتيْها وارتكزت على الأثاث لتتقدّم نحوه بخطوات صغيرة مرتعشة. كان وجهها المجعّد قد أضاء فجأة. وأصبح كلّ كيانها يشعّ بفرح هائل لكونها بعد على قيد الحياة لتلتقيَ بطفلها.

اهتزّ كيانه لهذا المشهد إلى درجة أنّه تسمّر في مكانه بلا حركة، ولم يجد ولو كلمة واحدة يقولها. لا وجود دون شكّ لِلَحظة أكثر تأثيرا بالنّسبة إلى مذْنب من أن يلتقيَ بأحد والديْه أو صديق أو امرأة من الّذين لا يُصدّقون خطأه. فهذه الأمّ العجوز الّتي لم يفكّر فيها منذ سنوات، الّتي لم تكن بالنّسبة إليه سوى كائن غريب، والّذي كان يخجل منها إلى درجة أنّه كان يكرّر حيثما حلّ بأنّه يتيم، ها هي بألعوبة واحدة من ألاعيب الأحداث تعود تلك الأمّ الّتي ربّته وحمته. وجدها تماما كما تركها. «لم أعتن، بك تبدو وكأنّها بصدد القول، لأنّك صرت كبيرا بما يكفي.»

كانت تنظر إليه بمحبّة مخلوطة بالاحترام، بذاك الاحترام الّذي تكنّه الأمّهات لأبنائهنّ الّذين كان الآباء قد خطّطوا طوال حياتهم بأن يجعلوا منهم كائنات استثنائيّة. كانت تحاول أن تكتشف فيه ذاك التّفوّق الموعود، وبما أنّها لم تلمسْه عليه فقد راحت تفكّر بأنّه لا بدّ وأن يكون موجودا ولكنّه مخفيّ بفعل التّواضع، إنّه أكبر من أن يُرى.

هذا الرّجل الّذي أمامها هو إذن ابنُهَا، هو إذن طفلُها الصّغيرُ الّذي طالما هدهدته بين ذراعيها، الطّفل الصّغير الّذي طالما وجّهت له إنذارات ومدائح. ها هو اليوم وقد قطع طريقه، وقد اختلط بمعمعة الحياة فلم تعد قادرة على مجرّد الاعتراف بمشاعرها نحوه. هذا الكائن الّذي كانت تكسوه وتُطعمه وتُحمّيه بنفسها، ها هو يبدو اليوم شديد البعد وغامضا ومجهولا. توقّفت على بعد خطوة منه، قالت له متأثّرة لمجرّد سماعها لنفسها وهي تخاطبه دون مجاملات:

- لكن، ادخل... واجلس...

تقدّم أرنولد. كم يبدو ملائما في ليلة الخوف والإحباط والنّدم هذه، بأن يلتقي بأمّه، بأن يتحدّث لامرأة ستظلّ دائما أمّه مهما فعل. من المستحيل أن يوجد ما هو أكثر راحة من ذلك. هي أمّه وهو ابنها. مازالت هناك أوقات رغم كلّ شيء حيث تكون الفضيلة موضوعا للتّفاخر. لا يمثّل الضّالّون ولا أسوأ المنحرفين استثناء في علاقة لها نفس هذه القاعدة. هم تماما مثل الطّيّبين، يحدث وأن يتمادوا في الحديث حول كرمهم وشجاعتهم. رفقة أمّه، قد يودّ أرنولد أن يعيش حياة بلا واجب، حياة تسمح له بالتّفاخر بنفسه علنا. لكنّه لم يكن أكثر من قاتل، ملاحقا من طرف الشّرطة، غير جدير بأن يُلهم أيّ مشاعر كانت.

- كم تبدو متعبا يا أرنولد! كيف يمكن أن نفكّر بالخروج في مثل هذا الطّقس!

كم بدت له حياة أمّه الّتي كان قد سخر منها واحتقرها كثيرا حياة

هادئة. فهي ليست بحاجة للخروج ليلا عندما تنزل الأمطارُ وتهبّ الرّياح. ظلّت تعمل على ضوء مصباح ضئيل بينما هو وبسبب صراعه مع النّاس قد ضاع إلى الأبد.

- لماذا لا تجلس إذن يا أرنولد. سأعدّ القهوة... إذا أردت... إلاّ إذا كنت تخيّر الشّاي.

أومأ بطلنا معبّرا عن رفضه. فقد أثّر فيه هذا العرض، لكنّه لا يريد شيئا ممّا عُرض عليه لأنّ اشمئزازه من نفسه قد بلغ أوجه.

- أصْغي إليّ يا أمّي، لا بدّ أن أحادثك.

تسمّرت في مكانها وظلّت ترمق ابنها في ذهول.

- هل لك ما تحدّثني به، أنا، أمّك العجوز؟

- نعم، يا أمّي.

- لكن تكلّم يا بني. قل لي كلّ ما تريد قوْلَه لي.

تردّد أرنولد لِلَحظات. ما الّذي سيحدثُ لو اعترف بكلّ الحقيقة؟

- أمّاه، قال متلعثما، أخشى أن تتخلّيْ عني عندما أطلعك عمّا فعلت.

وهنا غمرها ما يُشبه الهزّة المفاجئةُ. راحت تشتبه بألف شيء وشيء، لكنّها عاجزة عن تحديد ولو شيء واحد من كلّ ذلك. كان لِجسمها الغارق في المجهول وهي تُصغي لكلمات ابنها نفس أسلوب الدّفاع الّذي يتوخّاه عند المرض.

- لا أريد سماع شيء، أرنولد... لا أريد معرفة شيء. لست أكثر من عجوز مسكينة. اتركني في ركني كما فعلت دائما. أنا تعيسة بما يكفي...

وهي تنطق بهذه الكلمات، كانت قد اقتربت من الباب لتفتحه.

- إنّي ابنك، أجاب أرنولد.

- لا أريد سماعك، أكرّر لك. عد إلى أصدقائك. لا أستطيع تقديم شيء لك. أنت تعي هذا جيّدا. لماذا جئت لزيارتي؟

ارتسمت على وجهها علامات الانفعال والجزع كأعمق ما يكون. وكأنّنا بها قد خمّنت فجأة بإنّ طفلها إنّما يكون قد ارتكب جريمة قتل، كانت ترتعد لكونها تورّطت في مثل هذا الأمر المريب. رغم ذلك لم تكن بقلب جافّ وهي تخشى تهمة تواطؤ ما. ليس أكثر من أمر صغير يجبرها فعل على ذلك، إنّها ببساطة لا تعرف كيف ستدافع عن نفسها. فحارس العمارة هنا وهو في نظرها رجل مريب. فإذا ما قَدِمَت الشّرطة للتّحقيق في منزلها، فتوجّه لها أسئلة، ستموت من الرّعب.

- ألستِ أمّي؟

- أرجوك، دعني وشأني... ارحل... ولا تَعُد ثانية.

فجأة، رفع أرنولد رأسه. لقد سمع صوت خطى في الغرفة المجاورة. انكتم نَفَسُه، راح يدقّق السّمع. هل وقع في فخّ؟ هل تكون أمّه تريد إنقاذه وهي تأمره بالخروج؟ لكن، عاد كلّ شيء إلى صمته.

- من يكون؟ سأل أرنولد.

- لا أحد، أجابت الأمّ في نفس اللّحظة الّتي عاد فيها نفس الصّوت.

- كيف لا أحد؟

- لا، لا، أؤكّد لك بأنّ لا أحد هنا.

وبدل أن تُغضِب غرابة هذه الإجابة أرنولد إلاّ أنّها ملأته حزنا. إذن، استوى العالم بأسره ضدّه، بما في ذلك أمّه، وأضحى الجميعُ يطمحُ لضياعه الآن. هل يستحق حقّا مصيرا مُماثلا؟ فجأة أنارت ابتسامة غير متوقّعة علامات وجهه. أ لن يكون من المريح بأن يتمّ تسليمه إلى الشّرطة من طرف الشّخص الوحيد في هذا العالم الّذي من واجبه أن يحميه؟ إنّه يبحث عن سبب حقيقيّ لعذابه، سبب لن يكون خجولا في البوح به. وها قد وجده إذن، أ ليْس كذلك؟ فمن أكثر المجرمين قُبحا سيتحوّل إلى الضّحيّة الّتي سلّمتها أمٌّ غير طبيعيّة. للمرّة الأولى منذ أن محاولة الانتحار له أن يفرح حقّا.

- قولي لي الحقيقة، أمّي. هناك شخص هنا، شخص ينتظر أن أقوم بحركة تكشفني. لكن هذا لم يعد يهمّني في شيء. على العكس تماما، لو فقط تقدّرين الخدمة الّتي تقدّمينها لي.

- لا، لا يوجد أحد هنا. أقسم لك.

في نفس هذه اللّحظة، فُتح الباب ليطلّ رجلٌ قصيرٌ. كان في رُوب نوم بحيث يمكن أن نلمح ساقيه النّحيفتيْن والعاريتيْن في الأسفل. كانَ شبيهًا بعجوزٍ أحدبَ. له جمجمة صلعاء تكتسيها مسحة

صفراء، صُفْرةَ قطعة من العاج القديمة ومن عنقه كانَ ثمّة وشاح يتدلّى. همّ بفتح فمه من أجل التّحدّث. ظهر سِنّاه الأماميّان طويلين مثل نابيْن مُصفرّين. توقّف في مكانه عندما لمح الشّابّ. ثمّ تلعثم ببعض الكلمات التّي لم يكن لها معاني واضحة.

- إنّه ابني، ردّدت المرأة المسكينة.

بدا الشّابّ وقد تخلّص سريعا من خوفه.

- آه!... آه! غمغم وهو يلتفت ناحية أرنولد، أنا سعيد، سعيد جدّا بلقائك. من زمن طويل وأمّك لا تكفّ عن إعلان زيارتك الّتي... الّتي... الكلمات تعوزني، اعذرني... أنا شخصيّة مضحكة، أنت لا تعلم ذلك، أعرف لكنّي أسمح لنفسي بأن أطلعك على الأمر. أنت إذن ابنها! هذا مثير أو بالأحرى ها إنّي أتفهّم شعور أمّك بالفخر.

- لكن، من تكون أنت؟ سأل أرنولد الّذي اطمأنّ للوهنِ الجسديّ الذي لاحظه على مخاطبه.

- زوج والدتك.

في نفس الآونة، التفتت العجوز المسكينة ناحية ابنها.

- كنتُ أودّ أن أطلعك بنفسي على الأمر، لكنّي لم أكن أعرف عنوانك. سألت عنك في كلّ مكان، سألت عمّك غوستاف، في المصنع الّذي عملت فيه من ثلاث سنوات، لكن لا أحد يعرف مكان إقامتك.

في نفس الوقت الّذي كانتْ تخشى فيه أن يستغلّ أرنولد هذا

الظّرف ليكشف أسرار حياته، كانت ترتعد خوفًا من غضبهِ. أ لمْ يكن دائما ما يتحدّث عن أبيه بحبّ كبير وإعجاب فريد؟ أ لم يغادر منزل والديه فقط لأنّ هذا الأخير قد تُوفّي، ولأنّ أمّه قد أعادت علاقاتها مع تلك العائلة الّتي كان أبوه قد كرهها؟

- أنت تُسامحني يا أرنولد، أ ليْس كذلك؟

إنّه لمن الصّعب مشاهدة هذه المرأة العجوز وهي تحاول أن تبرّر لطفلها الّذي تركها مع نفسها دون أدنى شفقة. العجوز التي كانت محتقرة من طرف زوجها ثمّ من طرف ابنها في وقتٍ لاحقٍ.

- أنت لا تحقد عليّ؟ سألت مرّة أخرى.

وأرنولد لا يحقد عليها. فالمتاهة الّتي انتصبت داخله والّتي راح يصارعها في داخلها كانت أعمق من أن ينشغل بحدث بهذه العرضيّة. إنّه حتّى لا يشعر بالنّدم عن الدّور الجميل الّذي كان سيوكله لأمّه وكما اعتقد في البداية وهو متعهّدة لدى الشّرطة. ومع ذلك، لم يُرد أن يكبحَ رغبتهُ في أن يفتعل غضبا لا يشعر به، بالرّغم من أنّ أمّه تعترف بحقّه في ذلك. أ لم تكن قد استقبلته ببرود؟ أ لم تكن غير مبالية بمعاناته؟ راح يبحث عن كلمة تختزل كلّ نقمته. في هذه الآونة، التقت عيناه بعيني الرّجل القصير. لقد كانتا متناهيتي النّعومة والتّقبّل، ومليئتيْن باحترام موجّه لشخصه، ممّا أنساه رغبته تلك نهائيًا.

- لقد كنتُ ضحيّة، افتتح الرّجل القصير قوله وقد اعتقد بأنّ صمت أرنولد كان سببه الاهتمام الّذي يوليه له، كنت ضحيّة ظلم

حطّم حياتي. هل تفهم ما أقول؟

- نعم.

- أودّ أن أكرّر على مسامعك رغم ذلك بأنّي ضحيّة ظلم حطّم حياتي. أصغ إليّ جيّدا. لا يوجد ما هو أكثر فائدة لشابّ مثلك من الإصغاء إلى تجربة شيخ.

- لكن، أين أمّي؟ تساءل أرنولد وقد لاحظ بأنّ أمّه قد اختفت فجأة.

- أنا على علم بكلّ شيء، قال محاورُه بكلّ هدوء.

- كيف؟ على علم بكلّ شيء؟

- لا تعتقد بأنّك مجبر أمامي على أن تبْسط مشاعرك كابْنٍ. لقد أعملتُ عقلي، ولاحظت. أنت وأمّك، لا تنتميان إلى نفس العالم.

كانت هذه الكلماتُ الّتي قالها بلهجة المقرّب الّذي يبوح بسرّ ما قد أثارت استياء أرنولد.

- إلى ماذا تلمّح؟

- أرجوك... لا تحدّثني بهذا الصّوت العالي. يمكن أن تسمعك.

لِلَحظة، فكّر أرنولد بأن يوبّخ هذا الرّجل على كلامه، لكن سرعان ما نهرته ذكرى جريمته. «ما فائدة توبيخي له، وقد ضعت نهائيّا. فكّر بينه وبين نفسه.»

- سأخبرك بكلّ شيء، واصل الرّجل القصير قوله.

- لماذا؟ سأل أرنولد وقد بدأ هذا الإلحاح بإثارة قلقه.

- لماذا؟ أنت تسألني لماذا؟ لأنّك في معمعة الحياة، لأنك ترى جبابرة هذا العالم. أوه! أعرف كلّ شيء. لقد قصّت عليّ أمّك حياتك. لديك أصدقاء من مستويات رفيعة. تكفي كلمةٌ منك، كلمة واحدةٌ صغيرة ستكفي لأصلح كلّ شيء. أصغي إليّ جيّدا. قبل الشّروع في سرد الحدث الرّئيسيّ، لا ينبغي أن تمنع حشمة مصطنعةٌ الرّاوي من أن يتحدّث عن نفسه، وهذا يبدو لطيفا لمستمعه. قبل كلّ شيء، دعني أقول لك إنّي مغتبطٌ جدّا لزيارتك. وأيضا، إنّي كنت حريصا على النّوم منذ قليل، وعندما سمعتُ صوت رجل قادم من ذاك الباب، لم أشكّ لحظة بأنّه أنت.

- لكن ما هو هذا الحدث الرّئيسيّ؟ تساءل أرنولد الّذي يعتقد بأنّ كلّ ما ينقص من أجل الوضوح إنّما يُخفي فخّا ما.

- إنّه لمن دواعي سروري بأن تكون متمسّكا بمعرفته. ما دمتَ تشجّعني، فإنّي سأرويه لك. ذاك المساء، وككلّ مساء خرجتُ حوالي السّادسة للبحث عن حليبي. عند العودة، وبما أنّه عليّ أن أعبر شارعا صغيرا ومكتظّا، هو واحد من تلك الشّوارع حيثُ لا تتوفّر الفرصة لشابّ مثلك بأن يزوره إلاّ نادرا، هناك تمّ دفعي بكلّ قسوة إلى أن سُكب حليبي وشارفتُ على السّقوط. وعلى إثر عثرة، تمسّكت بفتاة شابّة. وعوض أن تسند رجلا عجوزا مثلي فإنّها انهالت عليّ بوابل من الشّتائم. كان هناك على بعد خطوات، شابّان يضحكان ويسخران منّي. وهما من أثارا حُنْقي بشكل بشع. اقتربتُ منهما وأنا مدفوع بغضبي وواع بضعفي. رحتُ أوبّخهما بلا رحمة. «أ لا تخجلان من نفسيكما، صرختُ فيهما، ألا تخجلان من الإساءة بهذه

الطّريقة لشيخ عاجز مثلي؟» نظرا إلى بعضهما البعض متظاهريْن بالاندهاش. «نحن؟ - نعم، أنتما.» لقد فقدتُ عقلي من فرط الغضب، خصوصا وقد تعرّفت عليهما بدقّة. واصل أحدهما قوله بوقاحة: «لا أرى سببا واحدا يجعلك توجّه حديثك إليْنا. فلسنا الوحيديْن في هذا الشّارع. - أنتما من دفعاني ومن سكبا حليبي.» فانفجرا ضاحكيْن. لم يتأخّر هذا المشّهد على تجميع جمهور حوله. لذلك أشهدْتُ المتسكّعين المحيطين بنا. لكن، لا بدّ وأنّ على مظهري هو الغريب والمنفّر حتّى يمتنع ذوو النّوايا الحسنة عن الوقوف في صفّي. إذ عادة ما يكون لأولئك النّاس الطّيبين المنتمين لشريحة الشّعب البسيط مفهوم متطوّر للعدل. فهم دائما الأوائلُ في الوقوف ضدّ الإساءة. وهم لا يفوّتون فرصة التّحيّز للضّعيف ضدّ القويّ. وبالتّالي، كان من الطّبيعيّ أن يُدافعوا عن العجوز التّعيس الّذي هو أنا، والّذي كان طعامه الوحيدُ قد امتصّته الأرض، ضدّ هذين المحتاليْن اللّذيْن يكلّماني بسيجارتين بفميْهما وبأيدٍ في جيوبهما. لكنّه العكس تماما ما حصل. كانت هناك امرأة عليها علاماتُ الصّدق، ولها وجه يوحي بالصّراحة، كانت تحمل بين يديها طفلَها وهو يبدو نظيفا وذكيّا وبثياب مرتّبة بشكل لائق، التفتتْ ناحية الهمجيّيْن وبسخريّة راحت تسوق هذه الملاحظة: «ممّ يشكو، هذا العجوز المُتصابي؟» كان من بين الحاضرين أيضا عاملٌ ممّن حضروا المشهد، واحد من أولئك العمّال المتّزنين ذوي الأصابع الماهرة والّذين إذا ما فرغوا من عملهم يغيّرون ملابسهم ويغرقون في دراسة النّاس من أجل الاسترخاء، وقد أضاف هو الآخر قائلا: «هذا ما سيُنْبِتُ له

رجليْن.» يا للعبارة الغريبة، أ ليْس كذلك؟ هذا لأنّ النّاس في وسعهم أن يكونوا بهذا الابتذال أحيانا، أ لا ترى معي ذلك؟ ستعترف لي بأنّ ذلك غريبا وأنّه لا بدّ من وجود شيء يدفع حقيقة على الغضب في كلامي معهم، وحتّى لا أظفر ولو بشخص واحد ينصف الرّجل المطموس والمسكين والمتواضع الّذي هو أنا. لا تندهش خصوصا من خليط التّفاصيل الّذي أغرقتك فيه. إذا ما كنتُ شديد الإلحاح على ذكر هذا الحدث فلأنّه وبنظرة عميقة هو حدث شبيه بذاك الّذي حطّم حياتي. لكن دعنا نعود إلى قصّتي، هذا لأنّها وكما سترى بنفسك هي قصّة جعلتني أستشعر زيارتك. كنتُ إذن فاقدا رأسي من الغضب. لأنّهم أساؤوا معاملتي بكلّ شرّانيّة، ولأنّي فقدت طعامي المسائيّ الوحيد، ستلاحظ بأنّ شكواي الشّرعيّة هي ما ألّبت الجماهير ضدّي، الأمر الّذي خفّض غضبي إلى النّصف بشكل من الأشكال. جابهتُ الجميع، لا فقط هذيْن اللّذيْن اعتديا عليّ بل أولئك النّاس الطّيبين الّذين يدعمونهم، استسلمت لمرارتي كما يُقال. «ألا تحمرّون خجلا، صرختُ في كلّ ذلك العالم، ألا تخجلون من أن تهينوا بهذا الشّكل رجلا أكثر عجزا من أن يدافع عن نفسه. لو كنت مكانكم لمتُّ من الخجل. أوه! صدّقوني، هذا لن يجلب لكم السّعادة. وإذا ما كنتم اليوم لا تخشون شيئا فإنّه سيأتي اليوم الّذي ستندمون فيه على ما اقترفتم لتوّكم.» طبعا، لم تكن سوى كلمات. ماذا كان في وسعي أن أفعل غير ذلك؟ أمّا مضطهديّ البعيدون على أن يأبهوا لِلَعناتي فقد استمرّوا في القهقهة بقسوة. وها هنا جدّ الحدثُ الصّغير الّذي أُصِرُّ على ذكره لك. قلت إذن إنّي وأنا

غارق في تلك الإيماءات العريضة، بنار تعتمل داخل الرّأس عندما أطلّ رجلٌ طويل القامة، مختلف، بثياب منتقاة، رجلٌ ينتمي بالتّأكيد لتلك المجتمعات الأكثر رقيّا، دنا منّي وقال لي بصوت دافئ وحنون، بصوت لا أعتقد بأنّه نطق أو صرخ يوما بكلمة نابية: «لقد واكبت كلّ المشهد.» وقبل أن أحصل على وقت للردّ، توجّه للجمع الّذي كان يضحك على حسابي. قال بلهجة عتاب سليطة: «ما تقدمون على فعله، يفتقر إلى الشّهامة. إذا ما كان هذا الرّجل، وبالأهمّية الّتي يوليها لأن يتمّ إنصافه، ساذجا قليلا فذاك لا يقلّل من أهمّية كونه على حقّ. ربّما يكون مبالغا في المطالبة بهذا الحقّ، لكن، كان على قوّة شبابكم أن تجعل منكم أكثر تسامحا.» عندما فرغ من كلامه، وضع يده على كتفي، ودفعني بلطف حتّى يبعدني قليلا. مدفوعا بما يشبه الغريزة، تصلّبتُ في مكاني وأنا أريد استغلال هذه المساندة كي أخبر كلّ هؤلاء الأوغاد بحقيقة ما فعلوه بي. لكنّه وبصرامة ناعمة، منعني من ذلك. بعد أن مشينا معا لدقائق، تركني لِلَحظة وعاد وبيده قارورة حليب. عندما أطنبتُ في الثّناء عليه، أجابني بكلّ بساطة: «أرجوك، هذا لا يصلح لشيء.» ثمّ وبعد أن سألني عن مكان إقامتي سار معي لا فقط إلى باب العمارة لكن إلى حدود هذه الشّقة، كلّ هذا دون أن ينبس ببنت شفة، إذا ما كنتَ تُصْغي إليّ. ما زلتُ قادرا على رؤيته إلى جانبي، بينما كنّا نمرّ من أمام الحارس. كيف يمكن لرجل في مثل تلك الهيئة أن ينخرط في تسلّق سلّم تفوح منه رائحة كريهة وبإنارة أضعف من إنارة هذا المنزل؟ هكذا كنتُ قد سألته مندهشا. لابدّ لمثل هذا الشّذوذ من معنى. ففي رؤية مظهره الّذي يبدو متكبّرا

بشاربيه الأسودين والجميلين، بأذنيه الدّقتيْن الملتصقتين إلى جهتي رأسه، هكذا بدا لي فجأة. كان حضورا ما فوق طبيعيّ إلى درجة أنّي رأيته إعلانا مقدّسا عن جبر الخاطر الّذي شملني.

توقّف الرّجل القصير فجأة. كان النّشاطُ الّذي تبثّه فيه ذكرى ذاك التّدخّل ما يجعله يعتقد في عمقه بأنّه مازال يتكلّم رغم صمته. حتّى أنّ شفتيه المتوقّفتين عن إصدار أيّ صوت راحتا تواصلان تحرّكاتهما وعلاماتهما وإيماءاتهما. فجأة عاد صوته بلهجة مغرقة في الغموض.

- هل تسمع المطر؟... هل تسمع الصّوت الّذي تُحدثه زخّاتها على بلّور النّوافذ؟ لم تكفّ عن الهطول منذ رحل. هل تفهمني جيّدا. لم تكفّ المطر عن النّزول منذ رحل. هذا لأنّه لا ينبغي للطّقس أن يتغيّر. هذا مهمّ جدّا. وستفهم لماذا. أنا، من ناحيتي، لم أكفّ عن التّفكير في هذا «المخلّص الغريب». كانت له جاذبيّة وبساطة أخّاذتان. على كلّ فرد، أنت تسمعني؟ على كلّ فردٍ على هذه الأرض أن يعرف ساعته، أقصد تلك السّاعة الّتي يُصلح فيه كلّ ذاك الأذى الّذي تسلّط عليه. عندما تحين تلك السّاعة، تصبح الأحداث متسارعة. فيجري كلّ شيء في نفس الوقت. جاء هو، وجئت أنت. غدا سنرى العدالة تلتمع. هذا لأنّي تألّمتُ كثيرا. أنت تراني اليوم مسكينا وعجوزا، بعدُ على قيد الحياة بفضل طيبة أمّك. لكنّي لم أكن دائما على هذه الحال. وعلى أنّي من وسط قرويّ مؤمن بالخرافات، فإنّي لم أكن أوّل الوافدين. لقد كان لي في مقاطعتي شهرة صغيرة. آه! طبعا لم أكن أخالط هناك شخصيّات مثلما قد يحصل في باريس. رغم أنّي كنت صديقا للعمدة ولأحد الملاّكين الكبار في البلاد. لقد كان

الجميع يقرّون بذكائي المتفرّد، وفي كلّ مرّة ينشب نزاع بين اثنيْن من أصدقائي، لا يتردّدون في طلب أن أفصل بينهما. أغرب ما يوجد في الأمر، هو أنّ هذه السّلطة لم توكل إليّ إلاّ لقيَمِي الشّخصيّة. لم أكن ثريّا على وجه الخصوص، مع أنّ زوجتي كانت قد جلبت معها مهرا كافيا لأن يُسْعدَ شباب اليوم. لم أمارس أيّ مهنة من شأنها أن تحقّق بعض الاكتفاء. لكنّ هذا التّعاطف العامّ الّذي كنتُ أحظى به لم يتأخّر في إثارة بعض الغيرة منّي. هل تسمعني؟

هل تفهمني؟ لقد كانت غاية في السّعادة، هذه هي الحقيقة. ماذا تكون السّعادة يا سيّدي إن لم تكن أقلّ ما يمكن للعالم أن يغفره لك. آه! لو كنتُ مدمن كحول مثلا، ما كان لأحد أن يريد الإساءة لي. لكنّي كنتُ متّزنا. هل تتابعني يا سيّدي؟ كنتُ متّزنا وصادقا ومجتهدا... إمم... هي طريقة كلام. عندما نكون صادقين، فنحن دائما مجتهدون. ما كان يهمّني في الحياة هي قصص الآخرين، هي أن أحمل أحكاما في خصوصها، أن أعبّر عن آرائي منها... ينبغي القول إنّه كانت لديّ طلاقة في الكلام أكثر ممّا أنا عليه اليوم... كانت لديّ أيضا موهبة في تمويه أولئك الّذين لا يعجبونني.

- إلى أين تريد الوصول؟ تساءل أرنولد، ملقيا نظرة عابسة على محدّثه.

- إلى أين أريد الوصول؟

أومأ الشّابّ برأسه أن «نعم».

- ربّما ليس لديك ما يكفي من وقت.

- لا أعرف.

- دعْني أنهي كلامي إذن. إلى حدود اللّحظة، كل ما قلته لك ليس بتلك الأهمّيّة. ما ينبغي فعله هو أن تعرف الباقي. بدأت الغيرة والحسد بالحومان حولي. كان الجميع يلمّحون إلى أنّني متكبّر وبأنّ الحبّ الّذي أكنّه لزوجتي كان مجرّد كوميديا وبأنّي ليلا أراود النّساء بوجه مخفيّ بقناع كرنفاليٍّ. من غير المجدي في شيء أن أقول لك إنّي كنت أتلقّى كلّ هذه القذارات بصمت وقور ومحقِّر في آن. هو خطئي. ماذا يمكن فعله ضدّ ذلك، لقد كانت لديّ حياة مثاليّة. كنت أرى العالم على أنّه حديقة حيث لا تزهر سوى الصّداقة والعدالة والطّيبة. تزهرُ إنّها الكلمة. كلّ ما يزهر أزهارٌ، أ ليس كذلك؟ الصّداقة والعدالة والطّيبة أزهار أيضا. أوه! لكنّ كلّ هذا ليس مهمّا. تكوّن الفراغ من حولي شيئا فشيئا. نُصِبت لي المقالبُ الهزليّة، كأن تتمّ دعوتي لحفلات لا وجود لها، ودعوات أخرى لمركز الشّرطة حتّى يُطلب منّي مراقبة كلامي. في ذاك الحين تماما مرضت زوجتي. بعد يومين، تُوفّيَت. «أنت من قتلها، أنت من سمّمها»، هذا ما كانوا يكرّرونه دون انقطاع خلال الأيام الموالية. «بماذا سمّمتها؟» كنتُ قد سألت. «بالزّرنيخ» كانوا يجيبون. وقفت المدينة برمّتها ضدّي. ولذلك تمّ اعتقالي.

- هل تمّ اعتقالك؟ سأل أرنولد بقلق.

- لا يُعتقل رجلٌ مثلي. لديّ رغم كلّ شيء علاقات قويّة. لم يكن أب زوجتي بمثابة أب لي فقط، لقد كان رجلا حقيقيّا. لم أحدّثك عنه قطّ. لقد كان في غاية التّهذيب. مع أنّه قضى جزءا هامّا من

شبابه في مزرعة، لقد اكتسب...

- نعم، نعم، فهمت.

- أواصل إذن. الظّلم يا سيّدي، ما لا يمكنني تحمّله. أنا، من كان ضحيّة لمظالم لا حصرَ لها. لقد تعذّبتُ. كثيرا ما أُسيء إليّ. لم يفهمني أحد. لم يُحبّني أحد. وعليه، انقضى الأمر، قرّرت بألاّ أترك الأمور تتجاوزني. فكلّ الّذين سبّبوا تعاستي، سأكون بدوري سببا في تعاستهم. خلافا لذلك، سيكون الأمر ملائما لهم، أليس كذلك؟ سيقتلون النّاس، سيسمّمونهم، وبعد ذلك وكأهدأ ما يكون، بسجائر بين شفاههم، سيمضون للقيام بجولة في السّاحة الكبرى للمدينة. لكن الأمر انتهى، أنت تسمعني، انتهى. لقد جاء. قيل لي إنّ ساعتي قد دقّ جرسها. مازال صوتها يتردّد إلى الآن بأذني. كان له وجه جليل، مثل وجوه الملوك. ونظرته كانت، أصغِ إليّ جيّدا، نظرته كانت ترى ما وراء الأشياء.

توقّف الرّجل القصيرُ وهو يكاد يلفظ أنفاسه. كان جبينه يتصبّبُ عرقا. وقد صار من لحظات يجد صعوبة حتّى في ترديد كلماته. انكمش جسمُه ولم تكن يداه المرتكزتان على الطّاولة تتحرّكان إلاّ ببطء شديد. في هذه الآونة تماما، عاودت والدة أرنولد الظّهور.

- لقد سمعتُ كلّ شيء، قالت لزوجها بلهجة حادّة.

بدت وكأنّها كانت ضحيّة اضطراب قويّ، وهو ما يمثّل مفاجأة من شخص لم يخرج من وحدته إلاّ حديثا.

- ما الّذي دهاك، واصلتْ بقولها، ماذا أصابك حتّى تسرد

حياتك بكاملها؟ ألن تفهم أبدا الأذى الّذي سبّبته لنفسك؟ ألاَ تجد بأنّ لك ما يكفي من متاعب! هل عليك أن تختلق متاعب أخرى؟ لكن أجبني بدل أن تنظر إليّ هكذا بعينيْن مذهولتيْن.

الحقيقة هي أنّ المرأة المسكينة، وقد رفضت الاستماع لابنها، كانت تخشى بأن يستغلّ هذا الأخير الاعترافات الّتي تلقّاها للتّو حتّى يجعل من هذين العجوزين حلفاء له. فإذا ما واصلا رفض الاستماع إليه فسيكون من السّهل عليه أن يلتجئ لابتزازهما.

لكنّ زوجها الّذي لم يكن يعلم شيئا من ذلك كلّه، أجاب:

- لماذا لا يمكننا قول كلّ شيء لابنك، مادام منّا وإلينا؟ فحضوركِ مثلا ذكّرني بأنّ في خضمّ النّار الّتي كانت دائما ما تنشب عن نقمتي قد نسيت الأسباب الحقيقيّة الّتي دفعتني إلى مثل هذه الاعترافات.

استعاد الرّجل القصير نفسه، ثمّ التفت ناحية أرنولد متابعا بقوله:

- أنت شابّ، يا سيّدي أ ليْس كذلك؟ لديك أصدقاء ذوو سلطة واسعة. أوه! لا تخش شيئا. لن أطلب منك خدمة ماليّة. كلّ ما أريده -وهذا لا يخفى عليك- هو أن تأتي عندما يتمّ جرّي إلى العدالة لتسرد من أجلي كلّ المحاورة الّتي دارت بيننا اليوم، وبأن تستغلّ كلّ قدراتك في النّهاية وهي قدرات واسعة كما أنا متأكّد، حتّى تتّضح للجميع الدّوافع الّتي كانت وراء ما اقترفت من فعل.

وعلى الرّغم من ملامح الغياب الّتي عليه، لم يكن أرنولد ليُفْلتَ ولو كلمة واحدة من أقوال مُحَاوِرِه. فهذا الأخير، هل هو مجنون؟ إنّه

ما يجهله. فهو دائم الارتجاف من الخوف. متّهم هو الآخر بجريمة، وأرنولد يخشى بأن تأتي الشّرطة على حين غرّة وتقتحم عليه هذه الشّقّة من أجل إيقاف زوج أمّه، ما سيكون مناسبة لضربة مزدوجة إن وجدوه ها هنا.

فجأة، نظر المجنون المسكين في عيني أرنولد، أمسك بيديْ هذا الأخير وقال بنبرة مبالغ فيها، وهذا بعد التّأكّد من أنّ زوجته قد غادرت المكان:

- إنّي، وأنت تصغي إليّ جيّدًا، آخر الرّجال. هناك آخرون ممّن انهاروا اجتماعيّا أكثر ممّا أنا عليه، لكن لا أحد، هل تسمعني، لا أحد لديه روح أكثر قبحا وأكثر عمقا منّي. إنّي مضحك، منافق، متملّق وشكّاك. أعلم ذلك جيّدا. أحيانا، عندما أغرق في نوبة من اليأس، أسمح لنفسي بالمبالغة في ارتكاب الأخطاء. لكنّي متأكّد من أنّ تلك الكلمات المتملّقة لا يمليها عليّ في الحقيقة إلاّ نفاقي. كنّ يُرِدن أن يجعلن منّي كائنا اجتماعيّا. من أنا على هذه الأرض؟ ما هي مزاياي؟ أحيانا تسيطر عليّ فكرة إنهاء حياتي. أ لم تكن حياتي قد انتهت بالفعل؟ أ لن يكون من الأفضل أن أتخلّص منها على الفور؟ من يعرف، ربّما بوضع حدّ لحياتي سأولد في جسم طفل مدلّل وهكذا يكون أمامي حياة طويلة وسعيدة لأعيشها؟ لماذا علّيّ الاستمرار بالتّمسّك بهذه الخرقة الّتي هي جسدي وفي مثل هذه الظّروف؟

لم يكن أرنولد قد استمع إلى هذه الخطبة الأخيرة. فقد كان بنظرته السّاكنة وبجسمه المستقيم لا يفكّر إلاّ في نفسه. أ ليسَ هو الآخر كائن بلا قيمة، بلا ميزة. أ ليْسَتْ حياتُه تماما مثل حياة الرّجل القصير

قد ذهبت أدراج الرّياح إلى غير رجعة؟ لهذا الأخير على الأقلّ عزاءُ اعتقادِهِ بأن لا دخل له في خيباته الخاصّة. أ ليْس بإمكانه كشفها للعالم، بينما هو أرنولد لا يمكنه كشفها حتّى لنفسه؟ هكذا راحَ يندبُ مصيرَه لبضع لحظات، عندما تبيّن له فجأة بأنّه هو الآخر ضحيّة من ضحايا العالم. فلولا لؤم البشر، لولا هذا الصّراع الّذي كان عليه خوضه من أجل حياته، لولا هذه الجموع الّتي ضيّقت خناقه والّتي كانت قد قتلت داخله كلّ ما فيه من سخاء، هل كان سيكون ما هو الآن؟ وحده العالم مسؤول على كلّ خطاياه. فلولاه، ماذا كان يمكن أن يكون عدا ولد شجاع وطيّب؟

راحت الدّموعُ ترجرج حنجرته. واعتملت فيه رغبة لا تُقاوم بالبوح بكلّ شيء، بأن يستسلم، بأن يصرخ أخيرا من شدّة الوجع الّذي يُثقله. لكنّ هذا المجنون الّذي لا يرى إلاّ من خلال ضباب بعيد، والمنشغل بنفسه وبمظالم مزعومة يدّعي التّعرّض لها، بصحّته المتداعية، هل سيصغي إليه؟ وأمّه الخاصّة أ لم تصدّه منذ قليل؟ أ لا يمكن لغريب أن يشفق عليه أكثر من كلّ الشفقة الّتي أحسّتها تجاهه طوال حياته؟ لا، هذا غير ممكن. فرغم كلّ شيء، أ ليس لهذا الألم فضائله، وهو يصنع صداقة تجمع كائنيْن لا يعرفان بعضهما البعض؟

- أنت، قال أرنولد بإسهاب، أنت التّعيس، أنت ضحيّة المظالم على مدى حياتك. واليوم، وبسبب الأذى الّذي ألحقوه بك، ها أنت مسكين ومريض وخائف. استمع إليّ... استمع إليّ بقلبك. سوف تفهمني. آه! لو تعلم ما الّذي فعلته بي وأنت تحدّثني. لا يوجد ما هو

أكثر راحة لرجل مثلي، بيأس يفوق اليأس الّذي وجدته عندك. كان يمكن أن أستمع إليك لساعات وساعات، وأنت تتحدّث عن العدالة والطّيبة والصّداقة. كم نبدو قريبيْن من بعضنا البعض! أريد التكلّم أنا الآخر. فبالإصغاء إليك أحسستُ بأنّي أقلّ وحدة، وأنت بالإصغاء إليّ ستشعر بأنّك أقلّ وحدة أيضا.

توقّف أرنولد عن الكلام، منهكا. ولم يعد المصباح الزّيتيّ الّذي يضيء الغرفة منيرا. كانت هناك طاولة تفصل الرّجليْن اللّذين كانا يجلسان متواجهيْن. ومن حين إلى آخر، وعلى شاكلة حبيبيْن لم يجرؤا على الجلوس معا، كانا يتلامسان باليد. كان الأثاث الّذي يحيطهما كبيرا وداكنا. راح الرّجل القصير يطلق زفرات. وكان أرنولد ينحني في اتّجاهه بكلّ تعاطف. لكن، فجأة وقف بوثبة، دفع الكرسيّ بإحدى رجليه. ركض في اتّجاه باب غرفة النّوم وصرخ.

- أمّي... أمّي...

لا مُجيب. حاول فتح الباب، لكنّه كان مقفلا بالمفتاح.

- أين أنا؟ تلعثم متسائلا.

- لكنّك بالقرب من زوج أمّك.

- زوج أمّي... زوج أمّي... هل لديّ زوج أمّ إذن؟

عاود الجلوس، لكن دون إجابة عن السّؤال الّذي طرحه في نفسه والّذي وصل إلى غاية شفتيْه ليتوقّف.

- يجب أن تعرف يا سيّدي، قال بهدوء غير متوقّع، يجب أن تعرف كلّ شيء. الرّجل الّذي أمامك هو أيضا ضحيّة من ضحايا العالم.

- أنا لا أفهم ما يحدث. قال زوج الأمّ مندهشا وفي هذه الدهشة يمكن رؤية سخط الّذي يشهد تراجع امتيازاته.

واصل أرنولد قوله ولم يلحظ البرود الّذي كان يلقاه تحمّسه للكلام:

- أنا متأكّد من أنّك سوف تتذمّر منّي، هذا لأنّي أعتقد بأنّه لا يمكن أن يوجد مصير أكثر تراجيديّة من مصيري. سأخبرك بكلّ شيء. لكن تحلّ بما يكفي من طيبة تُجاهي. إنّي أثق بك، مع أنّي لا أعرفك. تصرّف تجاهي بشكل لا يدفعني إلى النّدم. لقد كانت خطيئتي الكبرى هي أنّي آمنتُ بنفسي. لا يمكنك تخيّل حجم الاضطرابات الّتي هزّت مراهقتي. كنت أتخيّل نفسي بأنّي مكلّف بتعكير صفو الكون. لكنّ الأخطر من ذلك، هو أنّي قتلتُ رجلا في ظروف مرعبة وساحقة. وكان العذر الوحيد وراء فعلتي هي الحماقة. إنّه عذر تافه، أ ليس كذلك؟

لم يتوفّر الوقتُ لأرنولد كي يتابع كلامه. فقد انتصب الرّجل القصير واقفا فجأة. تشوّه وجهه من فرط الرّعب المتأتّي من سماع جريمة بطلنا.

- ماذا! وتجرؤ على أن تخبرني بهذا... ارحل! ارحل!... قال مضطربا.

- لَمْ تترك لي الوقت كي أنهيَ.

- ارحل... ارحل قلتُ لك! أ لا ترى بأنّك تصنع منّي شريكا لجريمتك. وخصوصا لا تَقُلْ أبدًا إنّك قد جئت إلى هنا. آه! يا إلهي،

يا إلهي، يا لأنانيّة هؤلاء النّاس! أ لا تفكّر إلاّ في نفسك؟ ربّما لم تلاحظ بأنّي عانيتُ بما يكفي؟ هل كان ينبغي عليك، أنت ابن زوجتي، أنت الّذي انتظرتُ منه المساعدة، أن تأتي من أجل إيذائي مثلهم؟ رغم أنّي لم أضرّ بأحد. إنّ أيّامي المرهقة تنقضي في كنف الهدوء. إذن فأنت تريد لي أن أُحْشَر آخر حياتي في قصّة قتل؟ يا للعار.

فاجأت هذه اللّهجة أرنولد.

- لكن، أجاب، أ لمْ تُفْهمني بأنّك لم تعد تنتظر شيئا من الحياة، وبأنّك قرّرت الانتقام، أعني بأن تنصف نفسك؟

- أبدا! صرخ الرّجل القصير، لم أقل هذا بتاتا. لا تحرّف أقوالي... لكن عليك الرّحيل، هذا أمر، ارحل، واتركني لمصيري الحزين.

انتصب أرنولد واقفا هو الآخر. صدرت عنه إيماءةٌ تعبّر عن خيبته الكبيرة. هكذا هم البشر إذن! هل ينبغي عليهم في كلّ مرّة يستشعرون فيها الخطر أن ينسوا الثّقة والصّداقة اللّتيْن كانوا أظهروهما لك في السّابق؟ كيف يمكن لمجرّد الخوف أن يغيّر كائنا إلى درجة يتنكّر فيها لكلّ غال ونفيس.

لطالما رافقت المرارة أرنولد إلى الباب، فهوَ ينتمي إلى أولئك الحسّاسين الّذين يكفيهم القليل من البرود حتّى ينطووا على أنفسهم. لا، لن يُلحّ. لقد فهم الأمرَ تماما. قبل أن يغلق الباب، ألقى نظرة مليئة بالشّفقة على الرّجل القصير. هذا الأخير، وهو بعد غارق في خوفه، قام بإشارة أخرى تستحثّه على الرّحيل.

- لا تخش شيئا، قال بطلُنا بكلّ نبل، لن يعلم أحد بمجيئي إلى هنا. لقد تأخّر الوقتُ. يمكنك النّوم بكلّ طمأنينة. الوداع، سيّدي.

عندما وجد نفسه في الشّارع، توقّف أرنولد مدّة متردّدا. ماذا يفعل؟ أين يذهب؟ راحت فكرةُ أنّه سيصبح سجينا تخترقه. أ لم يتمكّن بشكل من الأشكال من أن يخفّف من وطء غلطته؟ لكن وإن لم يفعل، أ لا يمكن أن ينجو من العقاب؟ لم يتوقّف المطر بعد عن الهطول. كانت الشّوارع فارغة تماما. يمكن أيضا التّخمين بأنّه مساء من تلك المساءات الّتي تكون فيها المسارح نصف فارغة. يخاف أرنولد العودة إلى فندقه، فقد تكون الشّرطة هناك لاعتقاله. ولأنّها لم تجده، قد تكون مختبئة وتتربّصُ بهِ في الشّوارع الجانبيّة أو بالأروقة أو حتّى بمكتب الفندق.

راح أرنولد يتقدّم دون وجهة. أصبحت الشّوارع الّتي يحبّها مثل غيرها من الشّوارع لا توحي له بشيء. فما يحدث داخله كان رهيبا إلى درجة أصبح فيها الدّيكور المحيط به وكأنّه بعيد أو كأنّه موضوعٌ من أجل أناسٍ آخرين. ماذا يفعل؟ أين يذهب؟ وراح يصغي إلى الوقع الرّتيب الصّادر عن خطواته التّائهة.

إنّه من يمشي الآن تحت المطر إذن. وهو من يتلفّتُ في كلّ مرّة، ليتأكّد من ألاّ أحد يتبعه. لقد كان وحيدا. فجأة، لمح ضوء وسمع صوت حافلات. توجّه دون وعي كبير ناحية «السّاحة البيضاء»، الّتي تجانبُ فندقه ومطعمه وقاعة الرّقص حيث تفضّل «جِينيا» القول إنّها تعمل، وهناك السّينما أيضا أين يقضّي مساءات الجمعة والبار الصّغير حيث يلعب الورق ويلتقي بأصدقائه. توافد مارٌّ

فمارّان ثمّ ثلاثة، وهو ما راح يحذّره بأنّه يقترب من الحشود. كانت شفرات «الطّاحون الأحمر» تدور بهدوء في الفضاء، بالرّغم من شبه غياب للرّيح. تردّد أرنولد عن الاختلاط بالعالم. في النّهاية، عَبَر ساحة ثمّ انعرج مع «شارع كْلِيشِيه». لعدّة مرّات، كان يمرّ من أمام البار الصّغير الّذي أشرنا إليه، ليس بحثا عن أحد الأصدقاء كما قد يبدو للعيان، لكنّه كان فقط يريد التّحقّق من عدم وجود الشّرطة في كلّ الأنحاء.

كانت تقلّبات أرنولد بلا حدود. فقد كان متيقّنا من أنّ ملاحقيه يعرفون اسمه وعنوانه وبالتّالي يعرفون عاداته. ومع ذلك، عندما لاحظ ألاّ أحد مريب حول المقهى أحسّ بأنّه أُنقِذ نهائيّا! فجأة، ارتعد.

- هل هذا أنت، أرنولد؟ صاح به صوت.

استدار بقوّة، وهي في أتمّ الاستعداد للهروب. عندها لمح شخصا تعرّف عليه على الفور، وهو من الّذين اجتمع بهم حول لعبة الورق. لِلَحظة، أحسّ بأنّ هذا الأخير إنّما هو شرطيّ وبأنّه على علم بكلّ شيء وبأنّه على أهبة أن يكشف له ذلك.

-ما الذي يمكنك فعله في مثل هذه السّاعة في الشّارع؟ سأل الرّجل.

شعر بالارتياح لهذه الألفة في خطابه والّتي لم تكن تعنيه كثيرا قبل هذا اليوم.

- وماذا أفعل؟ سأل أرنولد.

- هذا مثاليّ، قال الصّديق مع بعض التّظاهر بالمزاح، أن نُكلّف بمراقبة سلوك رفيق لنا.

- لكنّي كنت سأعود كي أنام، أجاب أرنولد.

- هل تتصوّر ربّما بأنّي أصدّقك؟ واصل الصّديق بقوله بنفس اللّهجة. اعترف بالأحرى بأنّي أباغتك وأنت بصدد البحث عن صيد ثمين. وربّما تكون "جينيا" تتصوّر بأنّك نائم بعمق الآن. سيكون عليّ ألاّ أتركك قيد أنملة. فبمجرّد أن تنفرد بنفسك حتّى يمكن أن نتوقّع منك كلّ شيء.

ارتعدت فرائص أرنولد. «إنّه على علم بالحقيقة إذن، راح يفكّر، وسوف يذهب لتحذير الشّرطة، وسيتمّ اعتقالي حتّى قبل أن أتمكّن من تبرير نفسي».

- هيّا، عليك بالعودة حالاً، أضاف الصّديق الّذي كان يعتقد بأنّه يزداد روحانيّة شيئا فشيئا. غدا سوف تفسّر لنا أسباب تواجدك في ساعة غير مناسبة مثل هذه في الشّارع.

أمّا أرنولد، المرتعد من الخوف، فقد سارع إلى الاستجابة قائلا:

- حسنا... حسنا... سأعود.

- لكن، ما الّذي أصابك؟ تساءل الرّفيق الّذي كان يعتقد بأنّ أرنولد يمزح بدوره.

- سأعود... سأعود...

راح يكرّر بطلنا وهو يبتعد عن محاوره الّذي ظلّ ينظر إليه

مندهشا دون أن يفهم منه شيئا.

- إلى اللّقاء... إلى اللّقاء...

عندما اختلى أرنولد بنفسه، تنفّس الصّعداء. كان هناك حشد كبير ينتشر في الشّارع رغم المطر. «جينيا، جينيا، هل تعتقدين بأنّي نائم»، قال الشّابّ بصوت مسموع تقريبا. لقد تذكّر فجأة علاقته مع تلك الرّاقصة. كما تذكّر القسوة الّتي وفقها قطع علاقته معها ليصبح عشيقا لامرأة عبرت مجرّد العبور من المكان الّذي يتردّد عليه حتّى يتمكّن من الانتماء إلى المجتمع الرّاقي. عادت إليه في تلك اللّيلة وهي دامعة وتوسّلت إليه بألاّ يتركها، في تلك اللّيلة أيضا وعدته بأن تكون وفيّة له إلى الأبد، وفي تلك اللّيلة أرادت أن تغيّر حياتها، أن تصبح زوجته وأن تجعل منه أسعد الرّجال. استمع إليها وهو يدخّن بعصبيّة. كان في غمرة فرحته بأنّه قد أصبح عشيق زوجة صائغ من صوّاغ «شارع السّلام» ولم يكن مخوّلا لأن يشعر بالشّفقة على جينيا. كان يعمد في كلّ مرّة إلى مقاطعة تضرّعاتها بأفكار شرّيرة وقاسية. ومن أجل إخماد ذاك الشّغف الّذي يسكنها، كان يصل إلى درجة الحطّ من كبرياء الرّاقصة المسكينة كأن يذكّرها بأنّها مجرّد بنت لأحد الخبّازين. وبأنّه لو أصبح زوجها ما كانوا ليقبلوا به في أيّ مكان مستقبلا عندما سيصبح سياسيّا. وأنّها من ناحية أخرى تكبُره سنّا. ستكون قريبا عجوزا دميمة في وقت يكون فيه في أوجه وأوج امتلاكه لكلّ سبُلِ الحياة. لكنّها رغم ذلك لم تكفّ عن توسّلاتها، واصلت بكاءها لعلّها تحوز على عطفه. فقال لها إنّه أبدا لن يتزوّج بامرأة لا يعرف كم عشيقا تملك. وإذا ما اتّخذ منها عشيقة فلأنّه كان

يعتقد بأنّها بالذّكاء المطلوب حتّى تمحي من حياته حينما تتوفّر له فرصة أهمّ. لكنّ حبّ هذه المرأة كان يزداد تأجّجا كلّما ازدادت إذلالا وكلّما زاد جرحها عمقا. في النّهاية همّ بالخروج تاركا إيّاها في قمّة اليأس، مهدِّدة بالانتحار، أجابها بأنّها أجبن من أن تُقْدم على ذلك. لذلك ارتمت حائلة بينه وبين الباب. دفعها بوحشيّة وخرج. ركضت خلفه وهي تعوي وتصرخ، لكنّها وفي كلّ مرّة تحاول الإمساك به كان يضربها دون خجل من قسوة ردوده العنيفة، وكان في كلّ مرّة ينعتها بأنّها المرأة الأكثر جنونا في الكون.

لكن، في ليلة الضّيق هذه، ها هو يفكّر فيها من جديد. فهو في حاجة ماسّة إلى السّلام والحماية والحبّ. ربّما لم تَنْسَه جينيا نهائيّا. آه! لو يكون الأمر كذلك، كم هو بحاجة لإصلاح أخطائه الّتي اقترفها في حقّها، كم هو بحاجة لأن تسامحه، كما هو بحاجة لأن يجعل هذه المرأة سعيدة! راحت فكرة رؤية جينيا تزداد إشعاعا في روحه. لكنّه يخشى أن تكون حصلت على عشيق جديد.

عند وصوله أمام قاعة الرّقص حيث تشتغل جينيا، تردّد قليلا. كيف سيتمكّن من الوصول إليها؟ فهو في ثياب مشوّهة بفعل المطر إضافة إلى أنّه بلا نقود، لا يمكنه مجرّد التّفكير في دخول هذه المؤسّسة الليليّة وعلى بابها يقف حمّالان وحارس مكلّفون بتأمين المكان. لكنّه خشي أن يجلب الانتباه بوقوفه الطّويل أمام البناية. كما يمكن من ناحية أخرى أن تكون جينيا قد فُصلت أو انقطعت عن العمل من تلقاء نفسها. بعد أن مرّ عشرات المرّات من أمام علبة الرّقص، قرّر أخيرا بأن يسأل أحد العاملين عن عشيقته القديمة. اقترب من

أصغرهما. وقال:

- هل يمكنك أن تُخبر الآنسة جينيا بأنّ السيّد أرنولد يريد التّحدّث إليها؟

أشار العامل رافضا:

- لم لا تفعل ذلك بنفسك.

أذهل هذا الزّجر أرنولد وأنعشه في آن. لا شيء يجعله مختلفا عن الآخرين إذن.

صعد مدرجا صغيرا بجدرانه حيث يُعلّق سجّادٌ ذو طابع شرقيّ مقلّد. عندما وصل إلى ما يشبه الممرَّ المجهّز على أساس غرفة ملابس، راح يقترب من مدخل القاعة وهو نصف متخفّ خلف حاجز منتصب أمامه، كان يبحث بعينيْه عن جينيا. الجمع غفير حول طاولاتهم وحلبة الرّقص كانت تغصّ بالرّاقصين والرّاقصات. فجأة لمحها. كانت ترقص مع رجل مسنّ وكانت تضحك عاليا. وعلى الرّغم من تصفيفة شعرها المختلفة وثيابها الجديدة لم تتغيّر قيد أنملة. فقط بدت له وكأنّها أصبحت أجمل. كما لو أنّها تتوقّع هذا الحضور بعد غياب، فقد كانت في تمام ألقها هذه اللّيلة. هو أمر راح يؤلمه ويشعره بفرح مرير في نفس الوقت.

وبما أنّها ودون أن تراه رغم أنّها تنظر إلى الجهة الّتي يقف فيها، فقد رفع يده. قامت بشبه قفزة في مكانها. اختفت ضحكتُها. ودون أن تكفّ عن الرّقص، كانت لا تزيح نظرها من عيني الشّابّ. عندما كفّت الأوركسترا عن العزف، تخلّت عن شريكها واقتربت من

أرنولد.

- أنت، هنا؟ سألت كما لو أنّه مازال عشيقها وأنّ كلّ ما حدث منذ انفصالهما لم يكن ذا قيمة تُذكر.

- كنت أودّ التّحدّث إليك. همس الشّابّ.

- حالاً؟ تساءلت.

- متى شئتِ.

- آه! حسنا، هذا أفضل. انزل وانتظرني في الأسفل لكن لا تجعل أحدا يراك. سأرتّب الأمور وألتحق بك. احرص على ألاّ تكلّمني قبل أن أشير إليك. سيكون عليك أن تتبعني لا أكثر.

تمّ تعداد كلّ هذه التّوصيات بحرص كما لو كانت من طرف امرأة عاشقة. وكان أرنولد قد أنصت إليها بكلّ خضوع وفرح بدا غريبا لجينيا بعد كلّ ما حدث. لكنّ هذا التّطوّر لم يبدُ للمرأة النّاضجة الّتي عليها تطوّرا فريدا. فكأنّنا بها كانت دائما تتوقّع بأن يحدث.

وهو وحيد من جديد، كان أرنولد مدركا بأنّه صار رجلا ثانيا. فقد استعاد ثقته بنفسه. بدا استقبال جينيا له استقبالا ذا لطافة فريدة. راح يبتعد إذن عن قاعة الرّقص تماما كما وُصِف لَه وظّل يراقب المدخل من بعيد. «على شرط ألاّ يطرأ طارئ بغيض قبل وصولها إليّ! ماذا ستقول لو تمّ اعتقالي الآن لتأتي ولا تجدني؟ ستظنّ بأنّي سخرتُ منها مرّة أخرى.»

ظلّ يراقب كلّ المارّة بقلق، ويخشى في كلّ مرّة أن يتوجّه أحدهم إليه ويكلّمه. كان يهتزّ لأيّ صوت مجهول المصدر. ولا يعرف أيّ

هيئة يتّخذ حتّى لا يلفت النّظر. وعندما يتوقّف كلّ مرّة لتقليب بعض البضاعة المعروضة، كان سرعان ما يتركها مخافة أن يثير شبهة ما.

فجأة أطلق صرخة تغمرها السعادة. لقد رأى لتوّه جينيا الّتي ودون شكّ كي لا تبدو في عجلة من أمرها استغرقت بعض الوقت في التّحدثّ إلى أحدِ الحمّاليْن. ثمّ وبما أنّ كلّ التّعاليم الّتي أمْلتها قد تمّ تطبيقها على أكمل وجه، فلم يعد في وسعها سوى أن تتوجّه إليه، دون أن تفكّر في مزيد من التّمويه. في نفس تلك اللّحظة، تسرّب إليه شعور بالحرج، لكنّه نَسِيَ كلّ شيء تحت وطأة فرحه العارم. عندما انظمّت إليه راحت تنظر إليه بكلّ اهتمام.

- لا يلائمك تغيير امرأتك، لك وجه شاحب. قالت بسخرية.

لم يجب.

- حسنا، ماذا كنت ستقول لي، «أرنولدي» الصّغير؟

من الواضح أنّها تريد الظّهور في مظهر من ليس له أيّ استياء، وأنّها غفرت له كلّ شيء وأنّها أيضا سعيدة في وضعيّتها الجديدة.

- بما أنّك تبدو مرهقا، هل تريد تناول شيء ساخن؟ قالت بأمومة.

أجبرته على الدّخول إلى مشرب، عالجت ياقة سترته، نزعت عنه قبّعته وأخذت يديه بيديها وراحت تدلكهما.

كان أرنولد ينظر إليها بحبّ وعرفان، لكنّها كانت تتظاهر بعدم الانتباه إلى شيء من كلّ ذلك.

- جينيا، قال بعد أن استعاد أنفاسه، ينبغي أن أحادثك؟ هل مازلت تحبّينني؟

لم تجب المرأة.

- جينيا، أتوسّل إليك، لا بدّ أن تحبّيني. أنا في غاية التّعاسة.

هذه المرّة تكلّمت المرأة، تكلّمت بحنان كبير، كما أنّها تريد أن تثبت بأنّها ليست من أولئك النّساء اللّواتي ينتقمن من أوّل انقلاب للوضع.

- لا أستطيع شيئا حيال ذلك، يا عزيزي المسكين. هل كانت لئيمة معك تلك المرأة؟

- أوه! لا، ليس هذا البتّة. بل أكثر خطورة من ذلك بكثير.

- هل ضبطكما زوجها معا؟

أشار أرنولد إشارة سأم.

-ليس هذا، بل أخطر بكثير. لقد انتهى الأمر بيننا منذ زمن طويلا. هي تركتني ولكنّي أنا الّذي ارتكبتُ جريمة.

ما إن نطق أرنولد بهذه الكلمات حتّى بدا كلّ شيء من حوله وكأنّه يتداعى. ظلّت ترمقه برعب. ورغم ذلك أسعفتها شجاعتها بأن تسأله إن كان جادّا فيما يقول.

- أي نعم، قال أرنولد باستعطاف.

- لكن، هل جُننت؟

انتصبت واقفة، دعت النّادل، دفعت ثمن المشروبات. كان من

الواضح بأنّها لا تحمل سوى فكرة واحدة، أن تغادر الشّابّ بكلّ علنيّة، حتّى يتمكّن ولو حريف واحد من الإدلاء بشهادته، إن اقتضى الأمر. وبما أنّ النّادل كان قد فرغ من جمع ما فوق الطّاولة، فقد التفتت ناحية أرنولد وقالت له بما أمكن من برود حتّى تكون مسموعة من المحيطين:

- بما أنّك أقدمت على مثل هذه الفعلة، فإنّه لم يعد بإمكاني رؤيتك مجدّدا.

ثمّ ودون أن تنتظر إجابة خرجت على وجه السّرعة تاركة بطلنا وجها لوجه مع ندمه واضطرابه.

كان أرنولد بلا أدنى قوّة. وكان يرى أعداء حيثما ولّى وجهه. لا أحد يريد الإنصات إليه. فما إن يتوجّه بالكلام إلى محاور مّا حتّى يلوذ بالفرار! لقد فهم بأنّه لم يبق له سوى أن يختار بين أمرين إثنين: إمّا أن ينتحر أو يمتثل للسّجن. لكنّ لا شجاعة له لمجابهة لا هذا ولا ذاك.

وهو يمشي كان يتساءل بقلق عمّا سيحدث له لو تتخلّى عنه قواه. انهار على مقعد خشبيّ. إلى أين سيجرّونه؟ إنّه السّؤال الّذي يطرح نفسه. وهو سؤال يسكنه مثل روح شرّيرة. هل إلى المستشفى أم إلى مركز الشّرطة؟

كانَ هناك متسوّل ينام تحت سقيفة. نظر إليه أرنولد لوهلة ثمّ واصل طريقه. ثمّ عاد أدراجه لينظر إليه مجدّدا. في النّهاية، ربّت على كتفه. فتح المتسوّل عينيْه، لكن وما إن انتبه إلى أنّه لم يكن سوى رقيب للمدينة، تسمّر في مكانه.

- ماذا سيصنعون بك؟ سأله أرنولد بلهجة المتحيّر.

لم يكلّف المتشرّد نفسه عناء الإجابة وعاد إلى النّوم.

استأنف أرنولد سيْره. كان يحسّ كلّما تقدّم الوقت بأنّ ساعة العقوبة قد أوشكت وبأنّ وسائل الإفلات منها قد صارت أكثر شحّا. من المؤكّد أنّ ساعة القبض عليه لن تتأخّر كثيرا. «آه! لو أتمكّن فقط من إنقاذ حياة أحدهم، راح يفكّر، لو أتمكّن من منع جريمة ما، لو أتمكّن من القيام بفعل جميل قبل أن يتمّ القبض عليّ!» كان بنفس القوّة الّتي أراد من خلالها قبل قليل معرفة ما يحدث للمتسوّلين الّذين يتمّ إجلاؤهم من الطّرقات العامّة، يريد أن يقوم بفعل جميل، فعل جميل يستطيع التّفاخر به عندما يحين الأوانُ الحتميّ للمثول أمام العدالة. لكنّه وبعد أن تثبّت من حوله، عنّت له حياةٌ واحدة رتيبة دون أفعال لا جميلة ولا سيّئة. آه! كم سيكون سعيدا لو يتمكّن بفضل عصا سحريّة أن يجد نفسه في مسرح جريمة! بأيّ نكران ذات سوف يضحّي بحياته من أجل السّيطرة على القاتل! بأيّ عناية سوف ينتزع منه الضحيّة!

فجأة انجذب انتباهه إلى صوت من الأصوات. ربّما تكون السّاعة الثّانية صباحا ورغم ذلك ميّز من بين هذه الأصوات صوت فتاة. توقّف أرنولد، وتخفّى بأحد الزّوايا، عازما على ضبط شيء ما. مشهد عجيب راح يتواتر على مرأى من عينيْه. كان ديكور هذا المشهد نهاية طريق مسدود بضوء خافت منبعث من لافتتيْن أو ثلاث تابعة لفنادق شعبيّة. من تلك الفنادق الّتي يلتجئ إليها عاشقان مغامران من حين إلى آخر. كيف يحدث في مثل هذه السّاعة المتأخّرة وفي مثل

هذا المكان أن تكون هناك فتاة؟ لم تكن وحيدة. كانت مرفوقة بامرأتيْن وكذلك رجل له هيئة لائقة ومظهر فخم وهو ما لا يتماشى معه. كان أرنولد بجفنيْه المتأهّبين كأقصى ما يكون وبأذنيْه المترصّدتين يحاول دون أن يظهر فهم ما يدور. وقد تمكّن من تجاهل صرخات الفتاة ليميّز أصوات المرأتين.

- بما أنّني أقول لك يا سيّدي، إنّ الصّغيرة لا تطلب أكثر، قالت إحداهما. ليس عليك سوى أن تتبعنا. ليست هذه المرّة الأولى. الفندق يعرفنا جيّدا ونعرفه.

ثمّ مخاطبة الفتاة:

- لا تبكِ هكذا إذن! السيّد لن يأخذك.

في هذه الأثناء شرع الرّجل في التكلّم.

- سأمنحك ضعف ما تطلبين، لكن تعالي معي إلى المنزل... لديّ وضعي الاجتماعيّ الحسّاس ولا يمكن تسوية الأمور على هذا النّحو. نحن هنا معرّضون في أيّ لحظة لانقضاض الشّرطة.

-مرّة أخرى نقولها لك، أنت بعيد عن كلّ المخاطر. إنّكَ ترى جيّدا بأنّ الصّغيرة خائفة. ينبغي أن تشعر بالسّعادة لأنّها وافقت على اتّباعك إلى الفندق. لا ينبغي أن تكون متطلّبا. لست مؤهّلا بأن تجد صغيرة بهذا الجمال والّتي لا تبتغي سوى إمتاعك.

لكنّ الغريب بدا وكأنّه يريد تجنّب شيء ما. لذلك استمرّ في إلحاحه على السّماح له باقتياد الفتاة إلى منزله. تُجاه شهوته الّتي تأجّجت، عمدت واحدة من المرأتين إلى نُصْح الفتاة بقبول عرض

هذا السيّد. لكنّ الطّفلة تمسّكت بكلّ يأس بقرارها أمام المشرفتيْن، حيث بدت إحداهما وكأنّها أمّها.

بشفتيْن جافّتين وقبضة مشدودة، لم يفت أرنولد شيء من هذا المشهد. في النهاية، فهم بوضوح ما يجري. كانت المرأتان قد راودتا هذا المارّ. واحدة منهما اقترحت عليه شابّة جميلة لكنّها شرسة. وقد اهتمّ الغريب بالعرض، راح يطلب منهما مزيدا من التّفسيرات. اهتمّت إحداهما بإجابته وذهبت الثّانية من أجل جلب الفتاة من الفندق الصّغير حيث يقمن جميعا. تمكّنت الفتاة من إيقاظ كلّ حواسّ العابر. لكنّ الخوف من فضيحة ما أو كمين أو ابتزاز راح يعوقه. لذلك خطر بباله أن يقترح على المرأتيْن بأن تسمحا له بجرّ الطّفلة عنده. وقد وعد بعد اصطحابها في جولة على متن سيّارته بأن يوصلها إلى حدود زاوية هذا الطّريق المسدود. لكن وبقدر ما يمكن لبعض النّاس أن يبلغوا مستوى متدنّ، فلا يحتفظون لأنفسهم بأخلاق تُذكر. كان بالإمكان الاستجابة لكلّ نزوات المارّ من طرف الخاطبتيْن فقط لو تمّت في حدود الفندق. لكن أن تظلّ هذه الفتاة وحيدة مع رجل غريب حتّى وإن كان هذا الغريب أبا طيّبا لعائلة فهو أمر غير مسموح به وفي غاية الخطورة. لذلك فقط اصطنعت هذه الفتاة المدرّبة من طرف أمّها وصديقتها الرّعبَ. ومع ذلك ورغم الرّفض الّذي قوبل به هذا ورغم تواجده في مكان خطر مثل هذا، فإنّ الرّجل لم يسلّم. تواصلت المناقشة مدّة عشر دقائق طويلة تمّ خلالها تبادل الحديث بصوت خفيض. في الأخير، على المارّ أن يَعِدَ بمبلغ معيّن حتّى تقبل المرأتان المريعتان، وحتّى ترتضخ الفتاة

تحت ما يشبه التّأثير السّحريّ. غابت المرأتان في ظلمة الشّارع بينما ظلّ الغريب يتمشّى جنبا إلى جنب مع الفتاة في الشّارع المضاء وببعض الحرج الّذي هو مزيج بين اهتمامه المركّز على أداة تحقيق رغبته المحاذية له وبين جملة من الاحتياطات الّتي ينبغي توخّيها، اتّجها إلى سيّارة متوقّفة على بعد خمسين مترا.

راحت ألف فكرة وفكرة تتقاذف في عقل أرنولد. تذكّر طفولته وجريمته وكلّ طموحاته المطفأة. «هل هذا ممكن؟ راح يتمتمُ، هل من الممكن أن يوجد على الأرض أناس قادرون على ارتكاب مثل هذه الفظاعات!» فجأة، بدا له وأنّ فرصة وحيدة تتوفّر له من أجل تدارك أخطائه، وهي فرصة أوحاها له الله دون أدنى شكّ. بعدها، لهم أن يعذّبوه، أن يدينوه، لن يكون ذلك أهمّ من إنقاذ طفلة مسكينة من قبضتي هذا الكائن الخسيس.

وانطلق مثل المجنون في ملاحقة الثّنائيّ الغريب.

- لكن ماذا تفعل؟ صرخ في وجه الرّجل الّذي كان قد فتح باب سيّارته. سوف تتبعني. لقد رأيتُ كلّ شيء. ما تُقْدِم على فعله في قمّة الحقارة. سوف تذهب لتعترف بذلك بنفسك أمام العدالة. إنّك تستحقّ السّجن والأشغال الشّاقّة.

شحب وجه المارّ مثل ميّت. في لمحة، رأى نفسه مجرورا إلى مركز الشّرطة، مستجوبا ومحتفظا به على ذمّة التّحقيق. من الغد، وبما أنّه سيغيب، ستعمد عائلته إلى الإبلاغ عن اختفائه. وهكذا تعلم بكلّ ما جرى. سيتحطّم مشواره المهنيّ وسيحتقره كلّ أطفاله. ستطلب

زوجته الطّلاق. سيصبح مرفوضا من الجميع، مفلسا ولن يبقى له سوى مصير المغتربين. أمام فرضيّات مثل هذه، لم يتبقّ أمامه سوى فكرة واحدة: الدّفع لبطلنا مقابل صمته.

- قل لي كم تريد... سأمنحك كلّ ما لديّ، كلَّهُ، لكن أتوسّل إليك بأن تنسى كلّ ما رأيت.

في خضمّ ذلك، كانت الطفلة قد نزلت من السّيّارة، وبعد تظاهر بأنّها لا تفهم شيئا ممّا يحدُث، ركضت هاربة فجأة. مع ذلك، توفرّ لأرنولد الوقت الكافي للتّحديق في وجهها. فشارف على إطلاق صرخة. لقد ضجّت الدّماء في رأسه. كان لهذه الطّفلة ملامح امرأة ناضجة. لا طفولة في نظرتها. كانت بتنّورة قصيرة، بشعر متهدّل على الرّقبة، بخصر ضامر، هي أساليب خرقاء وساذجة يتمّ اعتمادها حتّى تصيبَ الرّجال بعمى من فرط الشّهوة. لكنّها اختفت سريعا قبل أن ينهي أرنولد هذا الكشف. وبما أنّ كلّ فكره موجّه إلى القيام بفعل جميل فقد تابع بقوله:

- عليك أن تتبعني، لابدّ من ذلك، هل تسمعني؟ يجب أن نذهب معا إلى الشّرطة.

في هذه الآونة، تفطّن المارّ إلى فرار الفتاة. وكمن عادت إليه الحياة ضربة واحدة، فقد راح يتنفّس بكلّ حرّية. لقد اختفى دليلُ إدانته. يمكن له إذن أن يُنكر. لكن لن يُظهر شيئا من سعادته، من الأفضل أن يحسم الأمور بالحُسنى. نظر إلى أرنولد بدم أكثر برودة. تفطّن إلى أنّ الشّاب في هيئة رثّة، وأنّه لا يضع معطفا رغم المطر والبرد وأنّ

لوجهه ملامح المُتوهّم. لذلك أحسّ وأنّه وقع ضحيّة لمجنون أو منحرف يحاول أن يبتزّه أو أن يكسب أيّ شيء لصالحه بعد أن توفّرت له صدفة سعيدة جعلته يواكب هذا المشهد.

- هل أنت بحاجة إلى المال، أرى ذلك، قال له. سأعطيك ما تبقّى لي. وهو ما سيساعدك.

- لا أريد مالا، أجاب أرنولد. من تظنّني أكون؟ الأمر بسيط، يكفي أن تكون ثريّا حتّى تسمح لنفسك بكلّ شيء. إنّي أريد أن أراك تدفع ثمن ما تفعله.

- لكن، يا صغيري المسكين واصل العابرُ بقوله، هل تريدني أن أصير حطاما عند قدميك. أنت لا تفهم إذن ماذا يمكن أن يكون خطأ لحظة خاطفة. لقد فقدت عقلي. نعم، هذا صحيح، أستحقّ عقابا، لكن هذا العقاب أ لا تعتقد بأنّه سيتسلطّ عليّ كلّما لمحتُ البراءة بأعين أطفالي، أطفالي المحبّبين الّذين يجهلون الآن في أيّ هاوية يشارف أبوهم الوقوع؟ هؤلاء الأطفال، يا سيّدي، لو يعلمون بما فعلتَ، سيشكرونك راكعين على ركبهم. لقد قُمْتَ بأجمل الأفعال على الإطلاق الّتي يمكن لإنسان أن يقوم بها، لقد أنقذت إنسانا آخر.

بسبب اضطراب أفكاره والحمّى الّتي تعتريه منذ ساعات، بسبب غيضه وحاجته الملحّة للشّكوى، كان أرنولد قد فقد كلّ معنى لتدخّله هذا. بدا له أنّه بترك هذا الرّجل لحرّيته، لن يكون أمرا أقلّ من توقه إلى القيام بفعل جميل. وبعيدا عن كلّ ذلك، فقد أنقذته

غريزته الحواريّة دون أن يعلم. فهو يعلم تماما بأنّه بتسليمه للشّرطة إنّما يسلّم نفسه بنفسه. لذلك قابل ببعض الارتياح أقوال العابر الّتي هدّأت من روع ضميره، ودون هذا، كان يمكن أن يضطرّ إلى الاتّصال بالعدالة.

وبما أنّ أرنولد لم يجب فإنّ العابر مدّ يديه بكلّ عرفان.

- شكرا، قال له، إنّك رجل ذو قلب طيّب، وهي أعظم الصّفات.

تحدّث بكلّ جديّة، هذا لأنّه وقد خرج من اهتزاز عواطفه، راح يشعر بمتعة مردّها أنّه مازال بعد سالما وحرّا. وأرنولد راح يلوم نفسه سرّا على هذا التّعاطف المفاجئ.

- حقّا؟ تساءل بكلّ براءة. هل تجدني حقّا بهذه الصّفة؟

- نعم، تابع الغريب بقوله، وهو رغم كلّ شيء ممتنّ وقد اكتشف فجأة بأنّه ليس أمام محتال ولا مبتزّ لكنّه أمام مضطرب بكلّ بساطة. إنّك تعاني من قبح هذا العالم، وعندما ترى الشّر تعتمل داخلك ثورة ولا تفكّر إلاّ في العقاب. لقد كنتُ أشبهك في الماضي، صدّقني، كنت مثلك أندم ملء قلبي على استسلامي للإغراء. ما فعلته اليوم، ولك كلمتي حوله، هو ما لم أفعله من قبل. لكنّه العمر وقد مرّ، ومع العمر يزداد التّعطّش إلى المتعة، يزداد تراجع الاعتزاز بالنّفس، ويقلّ احترام العدالة وكلّ معنى أخلاقيّ آخر. إنّك بعدُ شابٌّ. وإنّك محظوظ بأن تكون كذلك. كلّ ما يمكن أن أتمنّاه لك، هو أن تظلّ شابّا طوال حياتك.

كان أرنولد متأثّرا. لأوّل مرّة منذ اقتراف جريمته يلتقي برجل يتحدّث إليه بمثل هذه الحميميّة واللّطف. أنارت سعادة غامرة كلّ روحه. كان يريد أن يمسك بيديه فبذراعيه ثمّ يحتضن كتفا إلى كتف هذا الرّجلَ المُنصِفَ الّذي نطق لتوّه بأنبل ما يمكن أن يسمع من كلام. مثل طفل ضائع وقد عثر فجأة على أبيه، راح يتهيّأ له خلال هذه اللّيلة العاصفة والباردة بأنّه في أمان وأنّه لن يكون في خطر مجدّدا.

أ لا يمكن لرجل ذي نفوذ وبهذا الثّراء أن يهتمّ بشخصه من هنا فصاعدا؟ أ لا يمكن أن يُبْعِدَ عنه بفضل سلطته أحابيل الحسودين؟

- إنّه أنا يا سيّدي، قال أرنولد، أنا الّذي عليه أن يشكرك. لو تعلم الرّاحة الّتي تركتها أقوالك فيّ، لو تعلم أيضا كم أنا تعيس وكم يبدو لي في غاية اللطّف، أنا الكائن الفقير والأعزل، أن أصغيَ لصوت مثل صوتك.

كان أرنولد يزداد تحمُّسا أثناء حديثه. أمامه، كان الغريب ينصتُ إليه باهتمام وطيبة ولطف. أ لا يبدو له وهو ينظر إلى محاوره بأنّه ينظر إلى الشّابّ النّزيه الّذي كان عليه في الأيّام الخوالي؟

- نعم، أنا من يشكرك، لأنّك الوحيد يا سيّدي من تكرّم بالتّحدّث إليّ بوصفي كائنا حيّا. لقد ارتكبتُ جريمة. قتلتُ رجلا لا أعرف لماذا، في لحظة منفلتة أو بالأحرى في لحظة كنت فيها في أمسّ الحاجة إلى النّقود. ورغم ذلك، لم تنبذْنِي وحادثْتَنِي بكلّ قلبك. شكرا.

لم يكن أرنولد قد أنهى كلامه عندما تغيّرت ملامح الغريب فجأة. ورغم ذلك أجابه بنفس النّبرة الهادئة:

- نعم، أنت شابّ طيّب، صادقٌ ومهمّش.

بقوله لهذه الكلمات، أخذ يديه وضغط عليهما بقوّة.

- لديك قلب عامر بالصّفات العظيمة، واصل بقوله. أتمنّى بصدق بألاّ تفسدها الحياة. إنّه مشهد حزين حقّا يخصّ فضائل الشّباب الّتي تصبح زبدًا قبل الأوان. أمّا الآن: الوداع... الوداع يا سيّدي...

صعد البرجوازيّ إلى سيّارته وظلّ أرنولد ينظر إليه بملامح الدّهشة والامتنان في آن.

- الوداع، أرنولد.

- الوداع، الوداع، أجاب الشّاب دون تفكير.

انطلقت السّيّارة. ظلّ أرنولد يلوّح بيديه «الوداع، الوداع» ويردّد متلعثما. أصبح يرى السّيارة من خلال غيمة. فجأة، انتبه إلى أنّه وحيد من جديد. «لقد كنتُ مجنونا، قال مفكّرا. كان عليّ إيقافه على الفور. يا لجنوني وأنا أتصوّر بأنّ هذا الرّجل مختلف عن الآخرين! هكذا هو الأمر دائما، لا نُبرز بعض جمال مشاعرنا إلاّ عندما يتخلّى النّاس علينا ويتركوننا وجها لوجه مع أنفسنا. لا شيء أكثر قسوة عليهم من أن يكونوا في حضرة النّبل والكرم.»

بكلّ أسى، استأنف أرنولد طريقه. كان مغتاظا من نفسه. كان واعيا بإخفاقه وبحمقه أيضا. «أنا عاجزٌ إذن على القيامِ بفعلٍ جميل.

هل كان على مشاريعي النّبيلة أن تؤول دائما إلى مثل هذه السّخرية؟ إنّي أستحقّ الموت بكلّ بساطة.» كمْ كان مرهقا. «لكن كيف سيعلم الجميع بأنّي أردتُ اقتياد هذا الفرْدَ إلى السّجن؟»

توقّف ليستردّ أنفاسه. داعبتْ وجهَهُ ريحٌ خفيفة. فجأة أحسّ بشيء ما بين أصابعه. اقترب من مصباح كهربائيّ. إنّها حزمة رقيقة من أوراق ماليّة ذات فئة المائة فرنك. لقد دسّها الغريبُ في يده إذن في نهاية محاورتهما، دون أن ينتبه أرنولد لذلك مجرّد الانتباه. راح يتأمّل الأوراق النّقديّة ببرود. «ومع ذلك يمكن لهذه الأوراق أنْ تُنقذني!» قال مفكّرا. لكنّ وجهه ظلّ كما هو، فهَمُّه الوحيد هو أن يقومَ بفعل جميل. لوهلة، فكّر في تمزيقها فقط ليُثبتَ احتقاره للأموال. لكن، عندما سيتحدّث عن ذلك، من سيُصدّقه؟ ليس عليه سوى أن يحتفظ بها. لا، كلّ هذا سخف في سخف. رغم أنّ هذه النيّة راحت تتّضح في داخله أكثر فأكثر، لكنّها ليست نافعة إلى تلك الدّرجة كما كان يظنّ دائما. أ لم يكن الأساسيّ هو أن تتوافقَ قواعدُه مع ضميرَه؟ الحركة نبيلة بكلّ تأكيد، هذه الحركة الّتي بدرت من شخص كان ينوي أن يزجّ به في غياهب السّجن، وهكذا تخلّى عن فرصته الوحيدة في الخلاص. لن نتمكّن بعد ذلك من اتّهامه بمحاولة الإفلات من العقاب.

لم يحسم أرنولد الأمر بشأن تمزيق الأوراق النّقديّة. دسّها بجيبه في النّهاية مؤجّلا فعل إتلافها لوقت لاحق. خامرته الفكرة المباغتة بأن يتعقّب الغريب. لكن أثنته عن ذلك إمكانيّة اعتقاله بالحدود أو حتّى بمحطّة القطار. «كلّما تقدّمت أكثر في أفكاري، قال بصوت مسموع

تقريبا، كلّما أدركتُ بأنّ أمرا واحدا من شأنه أن ينقذني: القيام بفعل عظيم، أن أنتزع أحدهم من الموت المحقّق. لقد قتلتُ أحدهم، إذن فلأهب الحياة لآخر! هذا ما سيُخلّصني.» كان يطمح إلى الالتقاء بيائس، بأن يمنحه هذه النّقود وهنا يبقى عليه أن يسلّم نفسه. آه! بعدها، كم سيكون متماسكا عندما يبدؤون بالتّحقيق معه.

هناك، سيخفّضُ رأسه. سيعترف بكلّ أخطائه، لكن فجأة سيظهر أو تظهر الّذي أنقذه من الموت ويصدح بكرم وطيبة منقذه. وبالرّغم من الاعترافات الّتي ستُؤدَّى لصالحه من طرف النّاجي وهو يطفق في شعور الامتنان، فإنّه سيحتفظ بكلّ هيبته وهو ما سيؤجّج نار القُضَاة. هؤلاء الّذين سيدركون حقيقة أيّ الرّجال هو أرنولد، وعندما يمتثل أمام هيئة المحكمة، سيتوخّون جميعا تساهلا عميقا في الحكم عليه. لن يصل بهم الأمر طبعا بأن يشدّوا على يديه ويهنّؤونه. فمن تُوكَل إليه مهمّةُ تحقيق العدالة يصبحُ في الحقيقة عبدا لوظيفته. لكنّهم سيحتفظون بما هو أكبر من البؤس والحقارة والغيرة الّتي يبدونها لعامّة النّاس، وسيُظْهِرُونَ للّذي حكموا عليه للتّوّ بعضَ التّأكد من صدقه وتوبته لذلك سيستحقّ الرّأفة. لكنّ هذه الرّؤيا البديعة لم تُشْعر أرنولد بالطّمأنينة التّامّة. لقد كان في غاية الانهاك. وكان وجهه المطموسُ مُحْترقا من شدّة ما انهال عليه من مطر، كما كانت قدماه المبلّلتان متجمّدتيْن.

لم يكن منذ قليل يعلم إلى أين يتّجه. مع ذلك، قرّر بأن يظهر مظهر المتحمّس. أمّا الآن، فهو فلا يهتمّ حتّى لشكل المتشرّد الّذي أصبح عليه وهو هائم على وجهه في الشّوارع. «أنا الّذي يسمّونه في الجرائد

«خرقة بشريّة...»» غمغم قائلا. تقدّم شمالا ثمّ يمينا غير راضخ سوى لِميولِه. وكان أحيانا يحوم حول ساحة ليعود على أعقابه دون وعي كبير. تماما مثل آلام الّتي يسبّبها التّسمّمُ، أو مثل ضربات مطرقة تتردّدُ على فترات منتظمة، هي أيضا ذكرى الجريمة البشعة الّتي ارتكبها والّتي يتردّد صداها منتظما داخل روحه. يكاد النّفَسُ يخونه أيضا. نهاية، إنّها لحظة من تلك اللّحظات الّتي يسهل خلالها اعتقاله.

تبدو المدينة مهجورة. وجد نفسه بشارع خال ولا شيء أكثر حزنا من صفير الرّيح الّذي يصل إليه عبر الأشجار. لا وجود لأدنى إضاءة، جلبته أنهج متقاطعة مع هذا الشّارع. لكنّ حدسه راح مرّة أخرى، وهو بعده سالم من ذاك الزّبد اليائس، يلحّ عليه بألاّ يختبئ وأن يفعل ما يفعله المتجوّلون في وقت متأخّر من اللّيل.

وهو على تلك الحال، بلغ دون أن يشعر «ساحة بوفو». أفاقته مجاورتُه لِلْإِلِيزِيهْ من غيبوبته. «آه! آه! قال بصوت مرتفع كعادته، إنّه مشهد لا تنقصه عظمة، هذا السّور. (وهو يقصد السّور الممتدّ على طول شارع ماريني والّذي يحمي حدائق القصر الرّئاسيّ.) نعم، هذا للّذي يعرف كيف يلمس عمق الأشياء، هذا السّور وفي هذه اللّحظات بالّذات قد يتكلّم. أ لَيْسَ هو ما يفصل بموادّه الصّمّاء والحمقاء الرَّجُليْن اللّذيْن ما بينهما يتموقع كلّ الفرنسيّون، الرّجليْن الأكثر تباعدا الواحد عن الآخر، رئيس الجمهوريّة وأنا. فللأوّل تتوفّر كلّ الميزات، وللثّاني لا شيء. للأوّل كلّ الشرف والاستقامة وللثّاني الجريمة والانحراف.» لكنّ أرنولد لم يتقدّم أكثر في هذه

المفارقة. إنّه أكثر تعبا من أن يركّز تفكيره طويلا على نفس الموضوع، زد على ذلك أنّه راح يبدو بأنّه لا يعلم بما سيُجيب السّائلَ لو سأله عمّا يفعله في مثل هذه السّاعة بالقرب من الإليزيه. بدت كلّ الإجابات الّتي يمكن أن تخامره إجابات غير قابلة للتّصديق.

أحيانا يلفت انتباهَهُ تواجدُ رقيب مدينة في مفترقات الطّرق. دون أن يعود على أعقابه، بإرادة متوتّرة، بمظهر اللاّمُبالي إلاّ أنّه مرتعد من شدّة الخوف وكان يفرض على نفسه مواصلة طريقه كما لو أنّه ليس أكثر من متجوّل عاديّ، عندما يصل إلى مستوى الرّقيب بملامحه المنقبضة وبيديه المبلّلتين بالعرق، كان ينظر إليه مبتسما معترفا بالسّلطة الّتي يمثّلها، وقد قابله الرّقيب بنفس الودّ. آه! يا للفرحة الّتي يشعر بها عندما يضبط أحد الأعوان بصدد التّدخين في القطار، أو آخر بصدد محادثة ظريفة، أو آخر في باب حانة يمسك كأسه! وكأنّهم قادرون على إدخال بعض البهجة للمنحرفين بمجرّد إشارة من إشاراتهم تلك!

هل هي رغبة مختلطة بالفضاءات المفتوحة، فأرنولد قصد شارع الشّانزليزيه؟ لم يعد قادرا على المشي. مع أنّه لم يخطر بباله يوما بأنّ حمله لصليبه الخاصّ سيصل إلى نهايته. اتّخذ له ممشى داخل الحديقة الّتي تمتدّ على مدى «شارع غابريال». كانت هناك أعمدة إنارة تضيء المكان إضاءة موحشة. وكان يتوقّف بين الفينة والأخرى دون أن يكفّ عن البحث بعينيه عن مأوى يمكنه أن يحتويه إلى حلول الغد. راح يقتربُ من «كاروسيل» صغير لكنّه تفطّن إلى عدم وجود غطاء فوق الأحصنة الخشبية الدوّارة. لمح فجأة عبر كتل النّباتات مصابيح

سيّارة. وكم كان يريد أن يفرّ هكذا على شاكلة الأضواء الخفيفة!

ثمّ وبقرار سرعان ما ندم على اتّخاذه، استدار على أعقابه. لاَحَ له في أطرف الممشى ظلٌّ أسود وهو يتقدّم في اتّجاهه. لم يستدر. كانت تعتمل بداخله رغبة مجنونة في الرّكض، لكنّ ومرّة أخرى منعهُ حدسه. أ ليْسَ من قبيل خيانة نفسه لو فعل؟ «عندما لا يكون لدينا ما يمكن أن نُلاَمَ عليه لا ينبغي الفرار»، هكذا راح يفكّر. بثّ نشاطا في هيئته رغم ذلك، ليصبح راكضا تقريبا في غضون عشرين مترا. مثل صدى خطواته الخاصّة، فإنّ خطوات الغريب كانت تردّد دائما بمسامعه.

ظنّ وهو على مستوى «القصر» بأنّه يرى رجلا بصدد التّخفّي ما بين النّبت. «أنا محاصر»، غمغم كما يغمغم طفل وهو يلعب لعبة الاختباء مع رفاقه. تردّد صوتٌ حثيث الورق من كلّ النّواحي المحيطة به.

عند منعطف الممشى، وجد نفسه بغتة وجها لوجه مع متجوّليْن يبدوان بصدد التّحادث. توقّف متحجّرا في مكانه، وخلفه كان الظلّ المجهول يواصل تقدّمه. وهكذا راود أرنولد إحساس واضح بأنّه سقط في فخّ واضح. فحيثما ولّى تنتصب أمامه الشّرطة. راح الجميع يسدّون المنافذ دون أن ينبسوا بكلمة. سيكون بسبب الإرهاق وعدم المقدرة على مواجهة العقبات القائمة في كلّ الجهات كي يتوقّف مثل دابّة مُطارَدَة وسط دائرة راحت تضيق بتقدّم الثّواني، يبدو كلّ شيء على أهبة أن يطلق تلك الكلمة الّتي هي: «أنت رهن الاعتقال!»

دفعته إشراقة من الصّفاء الخاطف إلى الاقتناع بأنّه من غير المعقول أن يكون هؤلاء المتجوّلون من الشّرطة طالما أنّ الصُّدْفة وحدها ما قادته إلى هذه الأمكنة.

كان المجهول يقترب دائما. أمّا الرّجلان فقد راحا يبتعدان ببطء وكلاهما يشعل سيجارته. فكّر أرنولد في السّير خلفهما، ليتجاوزها لكنّه غيّر فكرته فجأة. تخطّى الأقواس الصّغيرة الّتي تحدّ المشى وشقّ الحديقة المعشوشبة دون أن يلجأ للرّكض كما هي العادة دائما ودون أن يلتفت وراءه، بل بخطوات واسعة ببساطة، راح يَصّعّد شارع الشّانزليزيه. عندما وصل إلى مشارف القصر الكبير اعتقد لوهلة أنّه بصدد فقدان الوعي. هناك رجال بجانبه تماما. توجّه أرنولد ناحية الرّصيف وبما أنّه لا وجود للسيّارات فقد راح يخطو خطوات جمبازيّة كما لو كان يجنّب نفسه الدّهس.

- بوليس! قال الرّجل فجأة وهو يشدّه من ذراعه.

كان طويلا وقويّ البنية، يرتدي ثيابا ملائمة ويضع قبّعة لباديّة يحيطها شريط حيثُ تعلق ريشة. كما ينغرس دبّوس شبيه بحدوة حصان بربطة عنقه. كما كان يضع قفّازين سوداوين ومعطفا محاطا بحزام عال. لقد كان في غاية التّمدّن.

- هل كنت تحاول الفرار؟ سأل المفتّش

- لكن لا... لا، تلعثم أرنولد بقوله وقد فقد رأسه نهائيّا.

- ألم تكن بصدد الفرار؟ هل تتظاهر بكونك لم تكن تخطّط إلى الفرار؟ هل تحاول سيادتك، أو هل تنوي خداعي؟

- لا، لا، أؤكّد لك، لا.

- أنت إذن ترى بأنّ وضعيّتك ليست خطيرة هكذا؟ هيّا، اتبعني، سوف تقدّم كلّ ما لديك من تبريرات في مكتب الشّرطة.

- لكن، ما الّذي فعلته؟ سأل أرنولد بسذاجة مصطنعة، هذا لأنّه استعاد برودة دمه لمجابهة الخطر المحدق.

- هل تنكر بأنّك شققت الحديقة ودست فوق عشبها؟

- لم أدس العشب أجاب أرنولد دون تفكير.

- أرني أوراقك.

- أوراقي؟

- نعم أوراقك.

- أيّ أوراق؟

تبيّن لبطلنا بأنّه تمّ القبض عليه وأنّ الفرصة الوحيدة الّتي تبقّت له من أجل خلاصه هي أن يصطنع بعض الصّراحة وطيش الشّباب حتّى يكسب نِعَم الشّرطيّ عليه، ولو وصل به الأمر إلى استغلال أوّل غفلة من هذا الأخير ليفلت بجلده.

- آمرك بأن تمدّني بوثائق هويّتك.

- هذا بالتّأكيد، أجاب أرنولد دون أن يمدّ يده إلى جيوبه.

- ماذا تنتظر؟

لم يجد أرنولد بُدّا من الانصياع. اقترب الشّرطيّ من عمود الإنارة من أجل تفحّصها.

- أنت من الفصل الواحد والعشرين؟ سأله بنبرة مشكّكة بعد لحظات قليلة من التّثبّت.

- نعم.

- رغم أنّ عمرك لا يتلاءم مع سنّ من هم في هذا الفصل.

- لقد تأجّلت مرتين.

- حسنا، حسنا. وهل يمكنك أن تقول لي ماذا تفعل هنا في مثل هذه السّاعة؟

- أنا بصدد العودة إلى منزلي.

وهنا أدرك بأنّ الشّرطيّ لم يركّز سوى على عمره، دبّ الإحساس بالأمان إلى أرنولد.

- أنت إذن بصدد العودة... أنت من يقول ذلك. اعترف بأنّك بالأحرى كنت بصدد تصيّد مكسب ما. ما هي سبل عيشك؟

- عائلتي من تدفع لي معاشا شهريّا.

- إنّها عائلة شديدة الكرم، عائلتك... وكم تدفع لك؟

- ما يكفي للعيش.

- أنت من يقول ذلك.

- تماما، أنا من يقول ذلك.

- هل تنوي اعتماد هذه النّبرة طويلا؟

- أيّ نبرة؟

- هذا يكفي، اتبعني. سوف تشرح كلّ ذلك بنفسك في مركز الشّرطة.

واجتاح الخوف أرنولد مجدّدا.

- لكن هناك من ينتظرني.

- رغم أنّك لا تبدو في عجلة من أمرك.

- هناك من ينتظرني، أقسم على ذلك.

- مرّة أخرى أقول لك، هذا يكفي. ليس عليّ الدّخول في مثل هذه التّرّهات. اتبعني.

شرع الرّجلان في المشي. لم يكن بذهن أرنولد سوى فكرة واحدة: استغلال أوّل فرصة تتوفّر له. لكنّ عندما وصلا إلى [جسر] «الألما» بدا مرافقُه متردّدا في الطّريق الّذي اتّخذه. تظاهر الشّابّ بعدم الانتباه إلى شيء من ذلك كلّه، راح ينتظر بفارغ الصّبر أن يستقرّ الشّرطيّ على رأي. أخيرا، عادا أدراجهما.

- هل أخطأت الطّريق؟ تساءل بطلنا بكلّ براءة.

- لا، لم أخطئ الطّريق.

- لكنّنا نعود إلى حيث كنّا.

- أعرف ذلك.

- لا أفهم.

- بالطّبع، لن نفهم أبدا بأنّه يمكن لنا أن نشعرَ بالشّفقة.

- أنا من يلهمك الإحساس بالشّفقة؟

- إحساس عميق بذلك. رغم أنّك وضعتَ نفسك في وضعيّة سيّئة للغاية.

- لكن، ما الّذي اقترفته؟

- لا تلعب هكذا بالنّار.

هذا خطير جدّا، وأنا أمدّك بهذه النّصيحة لأنّك بدوت لي ذا شخصيّة ودّيّة.

- أودّ أن تخبرني، بماذا يمكن اتّهامي.

- إنّك تصطنع السّاذج. مع أنّك تعرف جيّدا عمّ جئت تبحث في حدائق شارع غابريال. كانت محاولة فاشلة، أ لَيْسَ كذلك؟

وبالرّغم من اللّطف الّذي يتحدّث وفقه الشّرطيّ إلاّ أنّ أرنولد راح يتحدّاه. هنالك أمر لا يعجبه في هذا الرّجل. لكنّه ليس متأكّدا ممّ هو.

- لكنّي قلت لك إنّي كنت في طريقي إلى المنزل.

- أنت تعتمد أساليب المماطلة كثيرا، تابع الغريب بقوله. لا أيّها الشّاب لا تحاول خداعي. لقد التقيتُ بمن هم أكثر دهاء منك، وقد كانت الكلمة الأخيرة دائما ما تعود إليّ. كن عقلانيّا. إذا كنتُ أتحدّث إليكَ بهذه الطّريقة فهو لمصلحتك. تصرّف بشكل لا يجعلني أندم عمّا فعلته.

هذه المرّة، بدا أرنولد متأثّرا بهذه النّبرة. فجأة تذكّر تلك الجريمة الّتي نَسِيَها بدافع الخوف وغريزة الدّفاع عن النّفس. لابدّ وأنّه فقد

عقله كي يجيب في وضعيّة هذه بكلّ هذه الوقاحة.

- سامحني يا سيّدي، لست واعيا بما أقول. كنتُ متوتّرا. لم أنتبه حتّى إلى اللّطف الّذي أبديته لي في حديثك. لو تعلم الأثر الّذي خلّفه في نفسي اعترافُك بأنّك تكنّ بعضَ الودّ لشخصي. شكرا، شكرا مرّة أخرى.

- لا داعي للشّكر. هذا طبيعيّ. لمحت فيك فجأة ودون أن أتمكّن من تفسير ذلك منطقيّا، الصّداقة. هل ترى بأنّه لا دخل لي في ذلك. شعرتُ بأنّك تعيسٌ وأنّك بحاجة إلى بعض الرّقّة والحنان. هذا كلّ شيء. لن أكون متطلّبا كثيرا. أصغ إليّ، هناك دائما طريقة لحسم الأمر. أعطني ما لديك وسأعيد لك حرّيتك.

- لا أملكُ شيئا للأسف.

- لكن، بلى. الأكيد أنّك تملك مبلغا صغيرا. منذ وقت طويلا وأنت تحوم في الحدائق. لابدّ وأنّك جمعت ورقة من عشرة فرنكات من هنا وورقة أخرى من هناك. فأنت ولد في غاية الجمال.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لا أفترضُ أنّك تتمسّك بالذّهاب إلى السّجن!

ظلّ أرنولد يرمق رفيقَهُ. راح يبدو له حاليّا بضوء آخر مختلف تماما. قبّعة مائلة إلى الخلف، المعطف بحزامه وبأقفاله المفكّكة، وكان يدسّ يديه داخل جيوب بنطلونه. هناك شيء من الضّلال، من العجرفة تنبعث منه. أوصل سيجارته إلى فمه وبالطّريقة ذاتها تمكّن من حماية لهب عود الثّقاب بيديه، شعر أرنولد بأنّه رجل عاش كثيرا

في الهواء الطّلق.

- أؤكّد لك بأنّي لا أملك نقودا.

وهنا غيّر الغريب لهجته.

- آه! حسنا إذا ما اعتمدت هذه النّبرة، فالأمرُ يختلف. حسنا. أرى بأنّي أخطأت. سوف تتبعني.

- أتبعك؟

- نعم، إلى مركز الشّرطة.

مرّة أخرى اختفت عجرفة أرنولد. راح الخوف يكتم أنفاسه. ظلّ يرمق رفيقة بعينين جامدتين. هل هو شرطيّ أم لا؟ لكنّه وفي نفس الوقت الّذي يحاول أن يجد إجابة على هذا السّؤال، شعر بأنّه عاجز على حلّ هذا اللّغز. وكَمَثَل الّذي يَعْلُق في وضعيّة حلميّة أين يرتبط قدره بمعرفة تفصيل بلا معني، راحت العقبات تتفاقم أكثر فأكثر بينه وبين الحقيقة.

فجأة غيّر الغريب من نبرته.

- لنكن أصدقاء إذن، قال له وهو يشدّ ذراعه لا مثل شرطيّ لكن مثل عاشق. لا شيء يمكن أن تخشاه. سأقول لك الحقيقة. أنا لستُ شرطيّا.

- علمتُ ذلك، أجاب بطلُنا وقد وُضِع بهذه الطّريقة في الاتّجاه الصّحيح، ولم يعد لديه أدنى شكّ في ذلك.

- هذا ليس سببا كي تظهر في مظهر الذّكيّ. لا تنس بأنّي أنا من

قلتُ إنّي لست شرطيّا. لكن يمكنُني أن أكونه.

- ماذا يمكن أن يعني كلّ التّردّد. نعم أم لا، هل أنت شرطيّ؟

- إذا ما استمررت بأن تبدو بهذه الغطرسة، فلن أتكلّم معك بقلب مفتوح مجدّدا.

- ماذا تريد منّي في النّهاية؟

- أنا في أمسّ الحاجة إليك، هذا كلّ شيء. أريدك أن تصبح صديقا لي.

- لماذا؟

- لا تكن متلهّفا. ستعرف ذلك.

تسرّبت إلى أرنولد شبه طمأنينة. ظلّ يتساءل حول حقيقة هذا العبث الّذي لم يمنحه بعض الثّقة إلاّ لينتزع منه بعض الاعتراف.

- الرّجل الّذي أمامك، تابع الغريب بقوله، وغد بكلّ بساطة. وإذا ما كان هذا الوغد يتحدّث إليك بهذا الشّكل، فهذا لأنّ شبابك وسذاجتك ما يلهمني ببعض الودّ تجاهك. ليلا، عندما ينام جميع الشّرفاء، أبدأ عملي. وهذا العمل يتمثّل في انتحال صفة شرطيّ مزيّف. هكذا أتمكّن من كَسْب عيشي. لكن هناك ما تجهله. وهو بما أنّي أعمل وحيدا كضرورة حياتيّة، لأنّي لا أملك صديقا مضمونا يمكن أن يكون شريكا لي، فإنّي لا أنجح إلاّ في النّيل من بعض الحمقى المساكين مثلك. فهمت منذ حين أنّك الرّجل الّذي يناسبني. وهكذا كنت سأطرح عليك السّؤال. لكن قبل ذلك، أريدك أن تعرف طبيعة عملي، الّذي يتطلّب ذكاء كبيرا والّذي يمكن أن يضمن

عيشا كريما وخاليا من الهموم. هل تريد أن تصبح شريكا لي؟

- شريكك في ماذا؟

- في ابتزاز كلّ أولئك الّذين يتمتّعون برغد العيش، كلّ أولئك المرضى الّذين ينتشرون ليلا في أزقّة الشّانزليزيه والتّروكاديرو وبوا دو بولونيا والتّويلري. ننقضّ عليهم في الوقت المناسب ونطلب منهم أوراقهم، نطلب منهم بأن يتبعونا. لكن، في الطّريق نقبل منهم ما يهبوننا إيّاه من أجل أن نجنّبهم العار. هل تفهمني الآن؟

- هذا أمر شديد السّوء.

- في البداية، ربّما. لكن بحكم العادة سيبدو لك هذا كما بدا لي أمرا طبيعيّا.

صدم هذا الاقتراح أرنولد في البداية. لكنّ الفائدة الّتي يمكن أن يحصل عليها من وراء هذا العمل سرعان ما اتّضحت له جليّا. أ لا يمكن أن يكون الله يوفّر له من خلال هذه الشّخصيّة القذرة إمكانيّة القيام بعمل جميل، من أجل خلاصه بمعنى من المعاني؟ إنّها فرصة غير متوقّعة. أ لا يحقّق له فضح هذا اللّصّ بعضَ التّعاطف والتّسامح والشّفقة من لدنّ الجميع؟ كم تبدو غلطته لا شيء! راح قلبه يفيض فرحا. وها هو يرى بالفعل نفسه وهو يتلقّى تهاني من طرف رجال شرطة حقيقيّين. إذن هو ليس الرّجل الّذي ظنّنا ما دام لم يقبل بهذه الصّفقة البغيضة. مع أنّها كانت تحتوي على طيف ما لإسعاده. ماذا لو يتمّ القبض على الاثنين قبل أن يسنح له الوقت بتسليم شريكه الزّائف؟

ـ نعم، أقبلُ، قال أرنولد وقد كفّ عن مزيد من التّفكير في هذه الإمكانيّة.

ـ حقّا؟

ـ لديّ كلمة واحدة لا كلمتان.

ـ هذا رائع. لنتصافح إذن.

فجأة وفي خضمّ هذا الاستعراض عمد الغريب إلى وضع سبّابته على شفتيه موشوشا:

ـ التفت خلفك.

نفّذ أرنولد ما طلب منه. لمح على بعد خمسين مترا رجلا ذا مظهر أنيق وهو ينزل من سيّارته، وبعد أن نظر نظرات حذرة حوله، توغّل داخل الحديقة. وفي أسرع ما يمكن، ظهرت امرأة من حيث لا يعلم أحد وراحت تتبعه.

- حان وقت العمل، قال الغريب.

- بهذه السّرعة؟

- هل أنت خائف؟

- ليس تماما.

- كبداية، ليس عليك سوى أن تتركني أفعل. ستقف ورائي على بعد بعض الخطوات ولن تقترب إلاّ عندما أناديك. وإذا ما رأيت مصادفة بعض المقتربين، ليس عليك سوى أن تصفّر. وسأفهم حالاً ماذا يمكن أن يعني ذلك.

- لكن، ماذا لوْ رفض الرّجل أن يستظهر بأوراقه؟

- ها هنا تماما سأحتاجك.

- وماذا لو طلب النّجدة، وماذا لو تمّ القبض علينا؟

- لا تخش شيئا... لن يطلب النّجدة. سيتجنّب كلّ ما من شأنه أن يسبّب فضيحة له. لكن كفّ عن الثّرثرة. الوقت يداهمنا.

دون أدنى تردّد، انطلق كبير المبتزّين في اقتفاء أثر الثّنائيّ.

- آه! كدتُ أنسى، أضاف عائدا أدراجه.

ما اسمك؟

- أرنولد.

- حسنا يا أرنولد، اتبعني.

أشار هذه الأخير برأسه موافقا على مضض. قام ببضع خطوات خلفه عندما فكّر فجأة في القيام بنصف لفّة ومن ثمّ الفرار. ربّما يكون الغريب شرطيّا رغم كلّ ما بدر عنه، ومعه المتجوّل الّذي على وشك أن يُسرق أيضا. لكنّ الرّغبة في القيام بعمله الجميل أزاحت كلّ هذه الشّكوك. «لا يمكن لفرصة بهذا الجمال أن تتوفّر مجدّدا»، قال مفكّرا.

بعد مضيّ بعض الثّواني، اختفى بدوره داخل الحديقة. كان كلّ شيء قاتما حوله. لم يكن رغم ذلك في تمام اطمئنانه. فجأة، تناهت إلى أذنيْه أصواتٌ عاليةٌ. توقّف وحبس أنفاسه ليدقّق السّمع.

- ما الّذي يثبتُ أنّك من الشّرطة. ردّد صوتٌ. وعلى ذلك، حتّى

وإن كنتَهُ، ليس من حقّك أن تطالبني بأوراقي. فهذه الحديقة مكانٌ عموميّ. من حقّي أن أتجوّل فيها في الساعة التي أختارها. أرني شارتك إذن.

- سوف تتبعني برفقة السيّدة. أجاب الشرطيّ المزيّف. إذا ما كان لديك تفسيرات فستقدّمها لمفوّض الشّرطة نفسه. أنا لا أفعل سوى تنفيذ الأوامر الّتي أوكلوها إليّ.

- هل تعرف من أكون؟

- هذا لا يهمّني.

- حسنا، ستكتشفون ذلك بأنفسكم.

في هذه الأثناء سمع بطلنا ترديد اسمه.

- أرنولد، أرنولد، تعال هنا قليلا.

تردّد لحظة. لكنّ الرّغبَةَ في أن يُبرزَ جمال روحه راحتْ تستحوذ عليه مُجدّدًا. أ ليْس خلاصه في المحكّ؟ لذلك لا ينبغي عليه أن يتراجع. «سأتكفّل في الحال بالدّفاع عن المتجوّل، سنصبح اثنيْن. لذلك لن أخشى شيئا». راح يفكّر. هذا الفعل الجميل الّذي حلم به منذ ساعات طويلة سيتحقّق أخيرًا خلال لحظات. تقدّمَ. كان ضوء العمود يخترق أوراق الشّجر ليُنير مشهدا غريبا. مشهد رجُل يبحث، يومئ، يدافع عن شرفه ويتوقّف فجأة ليقول بعض الكلمات للمرأة الّتي برفقته، بينما كان زعيم المبتزّين محايدا، يقوم من الفينة والأخرى بحركة من أجل أن يقنعهما بأنّ كلّ أقوال العالم صارت غير كافية لتقنعه.

- أنتَ المدعوّ أرنولد؟

- نعم.

- ساعدني. ينبغي أن نقتاد هذا السيّد الجميل إلى المدير.

وبطلنا لا يتزحزح.

- ماذا تنتظر؟

إنّه لا يجيبُ. راح الشرطيّ المزيّف يرمقه باستغراب.

- ألم تفهم؟

وهنا، فجأة، تحوّل أرنولد إلى رجل آخر.

- ألاَ تخجل ممّا تفعل، صاح فيه. أنا من يأمرك الآن. أنت من ستتبعني إلى مركز الشّرطة. هل تسمعني؟ أنت، أنت المحتالُ.

في هذه الأثناء، التفت الشّاب ناحية سهّار اللّيل الّذي رافع عنه لتوّه. لكن وما إن نظر إليه، حتّى انفلت ما يشبِهُ الأنين من بين شفتيْه. إنّه صاحب السّيارة الّذي كان يتوسّل في إحدى الأركان بأن يحصل على الفتاة.

- كيف يمكن أن تكون أنت؟ تساءل الشّابُّ مندهشا.

- نعم، إنّه أنا، أجاب الجوّال اللّيليّ الّذي تعرّف بدوره على بطلنا. أرى بأنّك اختصاصيّ. ألم يكفك ما منحته لك؟ ماذا تريدان منّي أكثر؟

لكنّ أرنولد كان قد مضى فيما أقدم عليه حتّى لا يفقد برودة دمه بهذه السّرعة فتابع كلامه دون أن يعبأ لما قاله الجوّال.

- لا فائدة من أن تبذل جهدا كبيرا من أجل لعب هذه المسرحيّة الهزليّة. لستُ مغفّلا. مرّة واحدة تكفي. لكن دعني أقول لك، إذا ما واصلت في ممارسة هذه المهنة فإنّه ستحلّ عليك المصائب ضربة واحدة يوما ما.

- كيف، تشكّ بي؟ هل هكذا تشكرني؟ هل تريد ترك الفرصة لهذا المحتال كي يفلت من العقاب.

خلال هذا الحوار كان الشرطيّ المزيّف قد استعاد هدوء أعصابه، قال مقاطعا أرنولد:

- بالتّأكيد أيّها الشّاب. انتهى وقت المزاح. أنت من سيتبعني الآن. انظر إلى هذه. سوف تجرفك ربّما في اتّجاه مشاعر أفضل.

وسحب بطاقة من جيبه.

- لقد رئفتُ بحالك. اعتقدتُ بأنّك ستتوب إلى رشدك وأنّنا سنلقى منك بعض المساعدة. لقد كنت مخطئا. وهو ما قد يحدث لنا جميعا، هذه المرّة لن أعفيك من السّجن.

واستدار ناحية الثّنائيّ ليتابع بقوله:

- أنتما حرّان، سيّدي، سيّدتي، أعتذر على الإزعاج، لكن لقد كان ذلك ضروريّا من أجل البتّ في نوايا هذا الشّخص.

في نفس هذه اللّحظة تردّدت عدّة صفّارات في الفضاء.

- ما هذا؟ سأل أرنولد مرتعدا من الخوف.

لم يجبه أحد. كانت هناك أصوات ووقع خطى ونباح راحت

تقترب شيئا فشيئا من آذان المجموعة.

- إنّها الشّرطة، صاح المتجوّل. آه! أيّها الشّاب سيكون بإمكانك تبرير نفسك. هذا يغبطني كثيرا.

لكن يبدو أنّ هذه الغبطة كانت مجرّد مبدأ لأنّه ودون حتّى أن يوجّه كلمة واحدة لرفيقته اختفى بخطى خفيفة.

ظلّ أرنولد يحدّق في الشّرطيّ المزيّف. لم يعد هذا الأخير يهتمّ لأمره. كان يميل مرّة إلى الشّمال وأخرى إلى اليمين، متطلّعا خلال النّبت الكثيف والممرّات إلى وصول الأعوان.

- لنهرب بسرعة، سوزان، قال فجأة لرفيقة الجوّال اللّيليّ.

وقبل أن يتحيّن أرنولد الوقت للعودة من ذهوله، وجد نفسه وحيدا في الممرّ الخالي. راح يترقب مرتعبا هرولة الشّرطة. «هذه المرّة، علقتُ حقيقة قال متلعثما. سيسألونني عمّا أفعله هنا. سوف لن يصدّقونني عندما أقول لهم الحقيقة. يا إلهي ماذا أفعل؟» أراد الرّكض، لكنّ الخوف من أن يجد نفسه وجها لوجه مع أحد الأعوان راح يكبّله. فجأة، سمع صوتا.

- أين يمكن أن يكونوا. تساءلت المرأةُ.

رغبتُه في أن يُظهر نفسه، في أن يشير إلى الوجهة الّتي اتخذها المبتزّ والشّابّة، في أن يحصل على اعتراف من الشّرطة وأن يقدّموا له خدمة، كلّ ذلك راح يتداخل في عقله. لكنّه لا يقدر على فعل شيء. ظلّ ينتظر في سكون. فجأة، خانته كلّ قواه، وسقط أرضا.

عندما ثاب إلى رشده، كانت الحديقة ساكنة. وقف ببطء، أزال

الأوراق المبلّلة واحدة فواحدة وكانت قد علقت بملابسه، صفع عدّة مرّات متتالية وجهه من أجل أن يعود إلى وعيه كاملا. ثمّ، وقبل أن يعود إلى الطّريق، ظلّ ينظر بعمق إلى المكان حيث سقط حتّى يتمكنّ من التعرّف عليه إذا ما عاد إلى هنا مرّة أخرى.

ماشيا، كان أرنولد قد اقترب من محلاّت تجاريّة. كان يتمنّى أن يجد وسط هذا التّنشيط الليلي شيئا جيّدا يفعله. إذ لم تكلّل محاولته الأخيرة بالنّجاح. لكنّه ليس من أولئك الرّجال الّذين يستسلمون بعد اخفاق واحد. تابع طريقه إذن دون مزيد من التفكير. فالمشهد الّذي دارت رحاه في حديقة القصر صار الآن في عداد الماضي.

سرعان ما وجد نفسه أمام مكتب للتّبادل التّجاريّ. هناك حيثُ ينتشر متسّولون كثر إمّا مترنّحين أو نائمين بزوايا مفروشة بالقشّ. اقترب من أحدهم، ناوله ورقة من أوراقه الماليّة ذات فئة المائة فرنك، ثمّ ابتعد دون أن ينتظر شكرا، إنّه فعل لم يخلُ من كلّ علامات النّبل. لكن، أيّ دعم كان يمكن أن يتوقّعه من رجل في وضعيّة مماثلة؟ أ لا يمكن للشّرطة أن تشكّ به فيلقى ما لقيَه هو؟ أ لا يتطلّب الفعل الجميل وقبل أيّ شيء آخر توخّي الكثير من الحذر؟

فجأة، فهم بأنّ ساعة الفعل قد حانت. عندما نكون في وضعيّة عذاب، فوحدهم المعذّبون من يخفّفون عنّا.

على السّتار الحديديّ للمقهى الصّغير المنخفض إلى مستوى الثّلاثة أرباع قرأ أرنولد «مغلق بسبب حالة وفاة». من داخل المقهى ينبعثُ ضوء ضئيلٌ. هناك أيضا ضجيج خفيف وأحاديث تصل إلى

مسامعه. انزلق إلى الدّاخل. كان هناك أشخاصٌ كثر يتحادثون بكلّ هدوء. برؤيته قادما، توجّه إليه أحدهم قائلا:

- هل تعرف القراءة؟ المقهى مغلق. ونحن لا نقدّم شيئا للحرفاء.

- أستطيع القراءة، أجاب أرنولد، لهذا فقط سمحت لنفسي بالدّخول. فكّرتُ بإمكانيّة أن تحتاجوا في مثل هذا الظّرف إلى مساعدة ماليّة صغيرة.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض باندهاش.

- هل تنوي المزاح معنا؟ سأله بحدّة رجلٌ يبدو أحد بلطجيّة السّوق. ينبغي أن تقول لنا ذلك حالا إذا كانت تلكَ نيتكَ، هذا لأنّي سوف أعلّمك في الحين كيف تحترم مأساة الآخرين.

لم يتراجع أرنولد. كان واعيا بغرابة أسلوبه، لكنّه ومن ناحية أخرى لم يكن لديه خيار. فبدافع من سعيه المحموم وراء تقديم المساعدة إلى من يشبهه، ما يعني إلى أناس لا يشتركون مع أولئك المعوزين الّذين يسلبونك في نفس الوقت الّذي تحتاجهم فيه، لم يتردّد في أن يتسلّل إلى داخل هذه العائلة الّتي تعيش حدادا.

- أنا متألّم أيضا، تابع قائلا. لذلك أعرف كم سيبدو لطيفا رؤية متعاطف غير متوقّع يأتي ليشدّ بأيدينا. أنا لا أعرفكم، هذا صحيح. كما أعتذر على هذا التسلّل بهذه الطريقة عندكم. لكنّي وأنا أمرّ من أمام مقرّكم، أحسستُ بأنّ خلف هذا السّتار الحديديّ أناسًا يتألّمون هم أيضا، فوجدتُ نفسي هنا طوعا دون أن أشعر.

أصغى التّجمّع إلى هذه النّبرة باندهاش كبير. ورغم الانتباه الّذي

أولاه جميعهم لأرنولد، إلاّ أنّهم لم يتمكّنوا من استبعاد فكرة سخريته منهم. لذلك، وقبل أن يغضبوا صراحة، ظلّوا يترقّبون منه كلمة أو حركة قد تكشف الخلفيّة الحقيقيّة الّتي تقبع وراء هذا التدخّل المدهش. لقد كان تطلّعهم أقوى من الألم ومن الطبيعة الّتي راحت تجبرهم على الإبقاء على حذرهم.

- نعم، تابع أرنولد، لقد اعتقدتُ أنّي بمجيئي عندكم إنّما هو من قبيل الفعل الجميل. أنتم تتألّمون وقد أتيْتُ لأقولَ لكم إنّكم لستم الوحيدين في هذا الألم.

خلّفت هذه الكلماتُ المتهوّرة شكوكا لدى العائلة. فالدّخيل هو مجرّد محتال. وفي بحثه عن المال، اعتقد بأنّه من السّهل الحصول عليه لدى عائلة حزينة. وبتحالف عائليّ عميق، أراد الجميع أن يظهروا له في الحال بأنّهم ليسوا أغبياء وأنّ جُمَلَه المزوّقةَ لا يمكن أن تنطليَ عليهم.

- يمكنك العودة من حيث أتيت، قال بلطجي السّوق بنبرة شرّيرة. لدينا شيء آخر لنفعله في هذه اللّحظات عدا منح المال لكسالى من نوعك. سيكون من الأفضل لك أن تبحث عن عمل من أجل شراء معطف يقيك البرد.

أرنولد لا يتحرّك، اكتفى بالوقوف.

- هل تريد الانصراف أم لا؟

مدّ الشّابّ يدا كتعبير على تلطيف الأمور. ولا يوجد دون شكّ ما هو أبغض لمثل هؤلاء النّاس من أن تحدّثهم بطريقة متعالية وأنت لا

تملك ثروة قد تُبِيحُ لك ذلك. فهذه العائلة الحزينة لا ترى في أرنولد إلاّ صفة المتشرّد الّذي يحاول أن يبدو فاعل خير من أجل هدف واحد وحيد وهو أن يتسوّل بأكثر سهولة.

- ماذا تنتظر حتّى ترحل؟ تابع البلطجي بقوله بأكثر عنف هذه المرّة شادّا على قبضته.

وبدل أن يخمد أسلوب الزجر هذا تأجّج المشاعر النّبيلة لأرنولد فقد زادت من حجم تعطّشه للكرم. فبدا له من اللّطف أن يسمع هذه الإهانة. هذا ما سيعطي لفعله الجميل عظمة أكبر. ليكن، مظلوما، محتقَرًا، مهانا، سينجز فعله رغم كلّ شيء. أ ليس من قبيل الجمال الملائم له والّذي سيُكْسِبُه تعاطف وشفقة قضاته؟

- لن أرحل، قال بشكل قاطع، أو على الأقل لن أرحل إلاّ متى تدركون إلى أيّ مدى أتعاطف مع آلامكم. قد توحي لكم ملابسي وتعبي بأنّي لست أكثر من متشرّد مسكين جاء يطرق بابكم متسوّلا. اعلموا أني لم أنم منذ ثلاثة أيّام ولم آكل أيضا، كما أنّي خلال محنتي هذه كنت أقطع الطّرقات وحيدا، غير عابئ بالأمطار ولا بأيّ أحد. ستحلّ ساعتي، ستحلّ سريعا بقدر ما أنتم تصغون إليّ بانتباه.

- هلاّ تريد الخروج، أيّها المجنون؟ صرخت إحدى النّسوة الجالسات بالقرب من المنضدة.

- لن أرحل يا سيّدتي قبل أن أنجز فعل الخير الّذي أصبو إليه. خذوا، خذوا هذا ولا تشكروني. هذا بلا فائدة. لا أقدّم شيئا بغية الاعتراف لي بالجميل.

وهو يقول هذه الكلمات، اقترب من المجموعة ساحبا من جيبه حزمة أخرى من مائة فرنك ورمى بها عشوائيّا على الطاولة. اتّخذت كلّ الوجوه شكلها الّذاهل. إذا ما كان هناك شيء لم ينتظره أحد، فهو هذا الفعل المتفرّد.

- أين وجدت هذه النّقود؟ سأل أحد الرّجال بعد أن تناولها بيده حتّى إذا ما دفع سؤاله المريب هذا والّذي ينطوي على شكوك إلى تغيّر مفاجئ بأرنولد فلا يتمكّن من استرجاع ممتلكاته.

- لا يهمّ! أجاب الشّابّ. أمنحكم هذه النّقود فقط لأنّكم في عمق الألم. قد تخفّف عليكم بعضا من أحزانكم!

لكن، لا أحد فكّر في أن يشكر بطلنا. ظلّوا جميعا ينتظرون منه أن يعترف، أمّا الّذي استولى على اللّفافة، مثلما يستولي أستاذ على شيء تابع لمقلب لم يكشف بعد المتورّط فيه والّذي سيكون ربّما دليلا عليه، فكان ينظر إلى أرنولد بحذر، دون أن ينوي ولو لثانية إعادة هذه النّقود الّتي تمّ الحصول عليها بطريقة غير مشروعة.

- هيّا، قال هذا الأخير، اعترف إذن وحالا بأنّك سرقت هذه الأوراق الماليّة القليلة، سيكون أفضل لك.

عكّرت هذه الدّعوة صفو الشّابّ. لقد ألقى بهذه الأوراق البنكيّة على الطّاولة بحركة نبيلة تنمّ على كرمه، وعوض أن تختلط عبارات شكر الجميع كامتنان، فقد استغلّوا ذلك لاستجوابه. استبدّت بأرنولد مرارة عميقة. أ هذه إذن الحقارة مرّة أخرى والّتي دائما ما تؤول إليها اندفاعاته الرّاقية؟ يا للحتميّة الّتي تثقل كاهله مهما فعل،

دائما ما تنقلب الأمور ضدّه؟

قال بقلب يغرق في مياه الاستياء:

– حسنا، إنّي أفهمكم... أعيدوا إليّ هذه النّقود وسأرحل... لقد أخطأتُ... اعتقدتُ بأنّ حركتي هذه سوف تلامس قلوبكم، لقد أخطأت بشكل ثقيل... نعم، قطعت طريقا خاطئا... لم أتّخذ فيه سوى قلبي دليلا... وإنّها خطيئتي الوحيدة... أعيدوا لي النّقود وأعدكم بأنّكم لن تسمعوا ذكري مرّة أخرى.

– كيف؟ صرخ الرّجل متسائلا، هل تريد أن نعيد إليك هذه النّقود الّتي لا نعلم من أين سرقتها... لكن ألا تخجلُ من نفسك... سيكون عليك قبل كلّ شيء أن تقول لنا مصدرها، هل تسمع؟ إذا ما رفضت، هنا، سحقا لك. نحن لا نريدُ أن يكون لنا معك أيّ رابط مهما كان. أمّا النّقود، فمن غير المجدي أن نقول لك إنّنا سنحتفظ بها.

– هذا أمر قويّ نوعا ما، أجاب أرنولد الّذي رغم الجريمة الّتي ارتكبها مازال يحافظ على صفائه. أنتم إذن ترفضون إعادة هذه النّقود لي؟

– هي ليست لك.

– هي ليست لي؟

أحسّ أرنولد بأنّ الدّم قد انحسر في رأسه. وتحت وقع هذه الوقاحة نسي تماما بأنّه مجرم وأنّه في فرار متواصل من قبضة الشّرطة، وبأنّه كان يريد ببساطة هذا الفعل الغريب، بأن يحصل على شهادات

في مصلحته من أجل المستقبل. لم يكن سوى رجل في صراع ضدّ ما يخاله مخالفا لمبدأ العدل.

- سوف تعيدون لي هذه النّقود، صاح قائلا، هل تسمعونني، وإلاّ سأصرخ طالبا المساعدة من جموع المارّة.

أن يكون في وضعيّة المطالب بحقه أمر راح يفقده برودة أعصابه. لقد كان من الملائم له أن يكون وعيه مثقلا بهذه المطالبة، وأن تتاح له الفرصة في رفع صوته. في هذا الظرف، بدا له بأنّ الجميع سوف يتعاطفون معه، وهو في خضمّ هذا الاحتمال، في هذا الانحلال الأخلاقيّ حيث وجد نفسه، أضاع أرنولد كلّ شعور يدفعه إلى توخّي الحذر.

- أنتم تفهمون، تابع قوله، بأنّي لن أسمح لكم بذلك. سيكون الأمر في غاية السّهولة. أنتم تسلبونني وتريدون منّي أن أخرس... بأن أذهب وألاّ أعلن شيئا... لا وألف لا. سوف تعيدون لي هذه النّقود على الفور.

- أيّ نقود؟ سألت إحدى النّساء متظاهرة بأنّها لم تر شيئا ومعتقدة بأنّها بهذا الشّكل هي تخدم مصلحة من استحوذ عليها.

- أرجوكم، لقد طالت هذا الكوميديا أكثر ممّا تستحقّ.

- أيّ كوميديا؟ سألت المرأة بنفس النّبرة.

هذه المرّة، لم يعد لغضب أرنولد حدودا. راح العرق يتصبّب على وجهه الشّاحب. أمّا شعورهُ ففحواه أنّ العالم بأسره هو ما يجرّه من الفرح الصّافي ليلقي به الضّياع المطلق.

- هذا جيّد، قال بهدوء مفاجئ، سنرى. سأذهب للبحث عن شرطيّ.

اعتقد الجموع بأنّ هذا التّهديد غير قابل للتّطبيق دون شكّ، لذلك ظلّوا على عدم اكتراثهم.

- هذا أفضل ما يمكنك فعله. وهو ما سيجنّبنا مزيدا من الازعاج. وإنّي حتّى أتساءل لماذا انتظرتَ كلّ هذا الوقت لتفعل ذلك؟

خرج أرنولد بكرامة. ولمدّة ثانية، راح يتصوّر بأنّه يشارف على خطر ما، لكن مادام عليه أن يسلّم نفسه يوما، أليس من الأفضل أن يتّصل بالشّرطة. راح يتصوّر بسذاجته بأنّ من شأن أخطاء الآخرين أن تخفّف من ثقل أخطائه، وأنّهُ مهما يرتكب لاحقا فإنّهم عند مساءلته عن جريمته سيضطرّ الجميع على التّسليم بأنّهم بضمائر مثقلة بالخطايا تماما كضميره.

على بعد خطوات من الباب، وبينما كان الجميع في الدّاخل يصبّون عليه لعناتهم، عمد هو بكلّ برود إلى تسجيل رقم المنزل، ثمّ ابتعد باحثا عن شرطيّ. وما إن التقى بأوّلهم، حتّى وجّه له هذه العبارات:

- سيّدي، لقد تعرّضت لحادث سلب للتوّ.

- ماذا تريد أن تقول؟ تساءل العون.

- أ لا تفهم؟ قال بطلنا بكلّ كبرياء. قلت لك إنّي وقعت ضحيّة للسّلب... نعم... أنا... وعلى إثر اندفاع كريم منّي، منحتُ كلّ ما أملك لأناس كنت أعتقد بأنّهم تعساء. وعوض أن يشكروني،

شرعوا في السّخرية منّي وفي طرح أسئلة غير بريئة. كانوا يريدون القول إنّي سرقت تلك النّقود، ولهذا طالبتهم بإعادتها لي. لكنّهم رفضوا وشتموني. أرجوك أن ترافقني إليهم.

- لكن، قال العون، أنت أعطيتهم هذه النّقود.

- تماما، لكنّهم رفضوا قبولها بحجّة أنّها نقود مسروقة. وعندما طالبتهم بإرجاعها لي، رفضوا.

- غريبة، هي قصّتك. لاحظ الشّرطيّ بقوله، سنذهب للتّثبّت من هذا الأمر.

- لماذا غريبة؟ الأمر في غاية بساطة.

- هي غريبة، قلت لك.

- لماذا غريبة، أسألك مرّة أخرى؟

- تعال. لنر ذلك.

عاد الرّجلان إلى المقهى الصّغير. خلال هذا الوقت، كانت الجموع قد سيطرت على الوضع. لم تكن قضيّة نقاشهم سوى حول الخدمة العظيمة الّتي قدّموها للمجتمع بمصادرتهم لهذا المبلغ. لذلك، عندما رأوا الشّرطيّ، أبدى جميعهم تلك الفرحة الّتي ترتسم على طرفين متصارعين عند مقدم حَكَمٍ ما. وبناء على ذلك، خصّوا ممثّل السّلطة باستقبال ملائم معبّرين على رضاهم التّامّ أن يكون بينهم، فقد بدا من الواضح أنّهم يحاولون إفهامه بأنّ مسألة تتعلّق بالتّحكيم. وهل كانوا سيعبّرون بكلّ هذا الصّخب لو كان هناك ما هو غير ذلك؟ أمّا أرنولد، فقد أفسد الحفل.

- هو ذاك، قال مشيرا لبلطجي السّوق.

لكنّ الشّرطيّ لم يكن مستعدّا لأيّ انحياز. وضع يده على حزامه، ثمّ رفعها إلى قبّعته، وفي النّهاية إلى كلّ مكان لم يتعوّد عليه عندما يكون منفردا، المهمّ أن يستعدّ للقيام بمهمّته. كان يعرف بأنّه كلّما أبدى صعوبة في اتّخاذ موقف ما كلّما حافظ على هيبته لأطول وقت ممكن. ومع ذلك، وبالتثبّت في التّفاصيل الصّغيرة، كان من الواضح بأنّ قلبه يميلُ إلى المجموعة.

تُجاه إشارة أرنولد، اكتفى بلطجي السّوق بهزّ كتفيْه تعبيرا على أنّ المشكلة ليست بهذه البساطة وأنّه له ما يقول هو الآخر. لكن الشّاب لم ير الأمور بهذه الطّريقة. لقد كان واعيا بأنّه ضحيّة نوع من الاحتيال، وبأنّ سوء نيّة خصومه راحت تزوّده بحماسة كبيرة إلى درجة أنّه نسِيَ أحداثا أخرى أكثر خطورة. في الحقيقة، كان يشكو حاله ويرثي لها، وهذا ليس بأقلّ من إحساسه بالفرح الدّفين. آه! كم كان يتمنّى أنّه وبدل هذه المناقشة، أن ينقضَّ هؤلاء الغرباء عليه ولا يتركونه إلاّ نصف ميّت! كم كان يريد أن يكون ضحيّة اعتداء بشع، أعمال عنف، مظالم أكبر وأكبر! وهكذا ستبدو أخطاؤه أصغر بكثير في نظره! إذا لم تلفت الظّروف الّتي عاشها النّظر إليه، ما كان أحد ليهتمّ بشأنه، هذا لأنّ فعل الشّر الّذي ارتكبه راح يبدو له أتفه من كلّ ما فعلوه له.

- سيّدي العون، تابع قائلا، هذا الرّجل أخذ نقودي ولا يريد إعادتها لي.

لم يستفسر الشّرطيّ المدنيّ عمّا حدث كما ينبغي. لقد كان يعتقد بأنّ أرنولد شخصيّة مشبوهة، لكنّ ومن ناحية أخرى كما يبدو جليّا، هي ليست أقلّ من قضيّة مجنون يعتقد بأنّه ضحيّة أمر ما. لذلك طلب من الرّجلين أن يرافقاه إلى مقرّ الشّرطة من أجل تسوية نزاعهما أمام المفوّض شخصيّا «إنّه مخوّل أكثر منّي، قال العون موضّحا، بأن يفكّ شفرة هذا النّوع من القضايا.» وقد رأى أقرباء البلطجيّ وأصدقاءه بأنّه سيكون من الطّبيعيّ مرافقة هذا الأخير. أمّا أرنولد، وهو الغريب في الأمر، فقد فرح بهذا الاقتراح. كان يجهل رغم كلّ شيء بأنّ وجهه قد انتشر في كلّ فرنسا، وبأنّهم بصدد البحث عنه ليل نهار، وبأنّه تمّ تصنيفه كفرد خطير. لكنّه شأن أولئك الّذين يعيشون على هامش المجتمع، دون ثروة ودون صداقة، وفي اليوم الّذي تنقلب فيه الأدوارُ لا يمكنهم الصّمود أمام رغبة تقليد أولئك الّذي يكرهونهم كأكثر ما يكرهون. وعلى الرّغم من أنّه لم يرد أن يظهر شيئا من ذلك كلّه، لكن أرنولد كان قد عانى كثيرا بسبب هذا التّحقير، وهذه العطالة. وبالإضافة إلى ذلك، وتبعا للمظلمة الّتي عاشها لتوّه حصل على بعض الأمان. للمرّة الأولى، تتوفّر له فرصة أن يطالب بحقوقه وبأن ينافس كبرياء أناس شُرفاء. لا يمكنه أن يفلت مثل هذا التّحوّل الّذي راح يُسْكِره فرحا. هناك طيف سعادة في كلّ ما يحدث: سعادة تخترق ذكرى جريمته، الذّكرى الّتي كان يطردها خارجا بكلّ سهولة مُكتفيا بإلحاقها ببعض المفاهيم الخاطئة. سبق وقلنا بأنّه شابّ ساذج. في الواقع، لم يتمكّن من تصديق بأنّ نفس الرّجل يمكن أن يكون ضحيّة وجلاّدا في ذات الوقت. ففي

وضعيّة الضّحيّة الجديدة الّتي هو عليها، كان متأكّدا من كون لا أحد سيجرؤ على الشكّ في أمره مهما حدث. إنّه صاحب الدّعوى. وكنتيجة لذلك، سيغدقون عليه كلّ مشاعر الاحترام الّتي يستحقّها فهو الّذي تعرّض للسّلب من طرف الآخرين. وإذا ما كانت ذكرى جريمته تعاوده أحيانا، فكانت مثلها مثل أيّ طيش شباب شديد البعد إلى درجة أنّها تبدو كأنّها اُقترفتْ من طرف شخصٍ آخر.

بما أنّه لم يتحرّك أحد من مكانه، راح العون يتوسّل إلى الرَّجُلين بأن يتبعاه. اعترض بلطجي السّوق في البداية وتعلّل بأنّ له أشياء أخرى يفعلها وأنّه غير مستعدّ لإضاعة وقته. حتّى أنّه راح يطالب بالكفّ عن إزعاجه، فأخته فقدت للتوّ زوجها وبأنّ على الجميع احترام آلامهم. لكنّ العون الّذي ظلّ مصرّا على الأمر، بدا كمثل أولئك الّذين نضطرّهم على تحمّل شقاء المصلحة العامّة. ما يعني أنّه كان عليه المجيء لأنّه عليه المجيء، لكن وفي النّهاية، لم يعد يرى لماذا تمّ التّوجه إليه بدل التّوجّه إلى آخرين.

أخيرا، قرّرت المجموعة بكاملها أن تتبع العونَ. كان أرنولد يمشي في المؤخّرة، هذا لأنّه وكما أسلفنا شابّ يتجنّب الجميع مرافقته. وعندما استدار الشّرطيّ للتّأكّد إن كان هو بالذّات لا يحاول الفرار، وقد أصابته تلك النّظرة، أومأ بيده موضّحا بأنّ كلّ شيء على ما يرام. كان مشهدا تراجيديا وكوميديّا في آن، هذا المشهد الّذي يؤدّيه الشّابّ الّذي هو محلّ تفتيش من الشّرطة هو نفسه من يحرص على ألاّ يهرب أحد.

سريعا ما وجد الجميع أنفسهم بمقرّ الشّرطة. كان أرنولد قد

احتفظ بكلّ إحساسه بالأمان. وكان يبتسم بغرابة. مع أنّ وجهه ظلّ محافظا على ملامح الجدّيّة. سنلاحظ عليه هذا العناد الّذي نلاحظه على أولئك الّذين ودون أن يكلّفوا أنفسهم كثيرا، يعمدون إلى إزاحة كلّ ما يربكهم عن طريقهم من أجل الوصول إلى تمام النّقطة الّتي يتصوّرون بأنّها من حقّهم. وبينما كان كلّ المحيطين به مستائين، ظل هو في كامل هدوئه. مثل فكرة ثابتة، فقد منعته المظلمة الّتي تعرّض لها من التّفكير في أيّ شيء آخر مهما كان. كان واثقا تماما من نفسه إلى درجة أنّه كان يتحرّك برخاء غير منتظر. كان يتوقّف بين الفينة والأخرى ليقرأ إشعارا معلّقا على إحدى الحيطان. تماما مثل الوزير الجديد الّذي، واحتراما للأعراف، يقوم بزياراته إلى بعض الموظّفين الّذين كانوا ينتظرون تولّيه السّلطة حتّى يصبحوا أتباعا له، أرنولد لم يجلس في قاعة الانتظار.

أمّا بالنّسبة إلى العائلة الحزينة، فقد كان من الممتع مشاهدتها. ففي هذا المكان الّذي من المفترض أن يكون مقرّا للسّلطة والنّظام، فقد كانت ذات عدد كبير. وأيضا، في الوقت الّذي كانت تعي هذا المنظر الطّارئ، فقد راحت تشعر برغم تفوّقها العدديّ بأنّها الأضعف. لا يوجد سوى عونيْن ناعسين جالسين على مقعد بالإضافة إلى هذه العائلة المتكوّنة من أربعة أنفار. كان الخلل الّذي ينبعث من هذه الوضعيّة ما لا يتماشى مع طباعهم. فقد كانوا يتكلّمون بصوت عال، ويتحدّثون عن أهمّيتهم، لكنّ بابا فُتح ليظهر عون في سترة نصف مفتوحة ومظهر نصف نائم ليصمتوا جميعا وعلى الفور.

لم يكن إلاّ بعد مضيّ نصف ساعة من الانتظار، عندما دخل

بلطجي السّوق وأرنولد إلى مكتب المفوّض.

كان المفوّض رجلا في الخمسين، لكنّه كان يبذل جهدا كبيرا كي يبدو شابّا. كما كان من الواضح أنّه يريد أن يقنع الجميع بأنّه يمارس عمله بحرفيّة عالية. للأعوان اعتبارات تجاهه مختلفة عن تلك الّتي تعوّدنا رؤيتها عند عامّة الموظّفين. جلب أحدهم وسادة له. وأفرغ الثّاني منفضة سجائره. وضع آخر أيضا على مكتبه كأسا فضّية وقارورة ماء، وقبل أن يخرج، عمد إلى فتح النّافذة إلى مستوى النّصف بطريقة من المؤكّد أنّها مفروضة من طرف المفوّض نفسه منذ وقت طويل، مرّة واحدة وللأبد.

بعد أن أشعل سيجارة بكلّ حبّ وقد راح يتأمّل العلامة المنقوشة عليها بعد أن أخذ النّفس الأوّل بتلذّذ، فتح مفوّض الشّرطة فمه وظلّ ينتظر لمدّة ثوان معدودة أن يخرج الدّخان من تلقاء نفسه. ثمّ راح يتأمّل الرّجليْن بعمق تأمّلَ تلك الكائنات المتفوّقة الّتي لا تحتاج مطلقا لسماع المتكلّم معبّرا عن موقف ما. ومع ذلك لم يكن الفحص شاهدا على ذكاء ما.

- ما الحكاية؟ سأل بكلّ نعومة.

اعتقد بلطجي السّوق بتفكيره السّاذج بأنّ الأفضل في مثل هذه الظّروف التّكلّم أوّلا. قبل حتّى أن يجد أرنولد الوقت لينطق بكلمة، راح يروي أحداث المشهد الّذي دار في المقهى الصّغير، مؤكّدا على أنّه تصرّف مثلما يتصرّف أيّ رجل شريف، هذا لأنّ النّقود الّتي كان قد ألقى بها الشّاب بسخاء على الطّاولة هي نقود مسروقة. لاحظ

مفوّض الشّرطة بأنّ شكوكا مثل هذه ليست سببا كافيا حتّى يقوم بمصادرتها وأنّه كان من الأفضل لو اتّصل بشرطيّ مدنيّ.

- ذاك ردّي الصّارمُ، أجاب بلطجي السّوق.

- مع أنّك، بتلكّؤك الّذي توخّيته، كنت تبدو وكأنّك أردت بالأحرى أن تستحوذ على ذاك المبلغ.

راح بلطجي السّوق يُقسم على أنّ مثل هذه النّوايا لم تخطر له على بال. أمّا أرنولد فلم يكن إلى حدود هذه اللّحظة قد حرّك شفتيْه. لقد شعر ببعض الودّ الموجّه إلى شخصه من لدن المفوّض وهو كما يعتقد أمر يستحَقّه ويدلّ على روح العدل عالية لدى هذا المفوّض.

- هلاّ أعدتَ لي هذه النّقود، قال مفوّض الشّرطة.

بعد بُرهة من التّردّد، نفّذ بلطجي السّوق ما طُلِبَ منه على مضض. وما إن أصبحت الأوراق الماليّة بيديه، حتّى توجّه لأرنولد هذه المرّة قائلا بنفس النّبرة:

- من الطّبيعيّ أن أعيد إليك ممتلكاتك، مع أنّك قد تفهم بأنّه من الطّبيعي أيضا أن أسألك عن مصدر هذا المبلغ.

لم يكن أرنولد أقلّ اضطرابا من الجميع. أجاب:

- إنّه من أميّ، وقد منحتْه لي خلال هذا المساء بالذّات.

- آه! جيّد... هذا كلّ ما أردتُ معرفته. وأين تقطنُ أمّك؟

أملى بطلنا عليه العنوان. سجّله المفوّض في ركن مفكّرته، مثل شيء بلا قيمة. ثمّ وقف قائلا:

- يمكنكما الانصراف الآن، أيّها السيّدان.

أطاع الرّجلان. كان بلطجي السّوق في حالة غضب لا تُوصف، لكنّه راح يخفي ذلك عن أقربائه، وأراد أن يترك لديهم انطباعًا بأنّه قام بدور كبير. أمّا أرنولد فقد كانَ يستعدّ للخروج بكلّ أبّهته عندما ناداه عون قائلا:

- الرّئيس يرغب في أن يجري معك مقابلة صغيرة.

كما هو، وبنفس برودة الأعصاب، عاد الشّابّ أدراجه.

كان المفوّض هذه المرّة قد غادر مكتبه. كان يتمشّى طولا وعرضا، وعليه ترتسم علامات انشغال كَمَنْ لديه سؤال مزعجُ ليطرحه.

- اجلس أيّها الشّاب، قال على الفور. كنت أودّ أن أتعرّف عليك كما ينبغي. لديك ما يكفي من وقت كما أتمنّى.

- لكن، هذا أكيد.

- لقد كنت أتساءل بعد مغادرتك، عن الدّافع الّذي كان وراء إعطائك هذه النّقود لأناس لا يبدون من نفس الوسط الّذي تنتمي إليه، أناس أنت أبعد على أن تعرفهم، وأكثر من هذا واسمح لي بأن أسوق هذه الملاحظة، أنت تبدو لي في حالة لا تسمح بمثل هذه الفنتازيا.

لم يتمكّن أرنولد من إخفاء إحراجه.

- لم أفهم قصدك تماما، قال.

كرّر المفوّض أقواله بأكثر تحليل. وهذه المرّة لم يستطع أرنولد أن

يتعلّل بنفس الحجة السّابقة لعدم الإجابة. قال:

- لقد أردت فعل شيء جيّد في حياتي. طبعا، أنا واع تماما بأنّه أمر قد يبدو غريبا للجميع، أعترف أنا نفسي بأنّه كذلك، كما أعترف بأنّه يثير شكوكا حول صدق تفسيري. كيف نطالب غريبا بتفهّم تلك الحركة الّتي نحن وحدنا مخوّلون بفهمها؟ فنحن نحاكم أشباهنا وفق ما نراه بأنفسنا. كيف يمكن إذن أن نسأل عن مأتى الفكرة الّتي دفعتي إلى فعل ما فعلتُ وأنا بدوري لا أفهمها. سيُقال لي، سيّدي المفوّض، بأن أبتلع ملعقة رمل كلّ صباح وسأتفاجأ بنفس الطّريقة الّتي ربّما تكون قد تفاجأت بها الآن. مع ذلك، هذا ممكن. فوفق ما لا أعرف من منطق يمكن لك أن تنجرّ لفكرة بأنّ للرّمل بعض الفضائل السّحرية والاستشفائيّة.

- أنت تعاملني على أنّي طفل أيّها الشّابّ هذا دون أدنى شكّ. لم أتصوّر لِلَحظة بأنّ الأسباب الّتي ستعدّدها لي والّتي هي وراء فعل كرمك، غير قابلة للتّصديق إضافة لغرابتها. لقد أردت ببساطة أن أعرفها، هذا لأنّها قد تكون أسبابا أخرى مختلفة. لذلك سأقرّ معك بأنّك هكذا رغبت فعل شيء جميل. لهذا ينبغي أن أقول لك إنّي معجبٌ برغبتك هذه. مع أنّه وسأسمح لنفسي مرّة أخرى بمضايقتك، فألاحظ بأنّه لابدّ من وجود سبب أكبر لكلّ ما عدّدت لي، بأنّه دون شكّ أردت أن ترضي ضميرك بفعلك هذا. صحيح؟

كان أرنولد مسحورا باللّطف والذّكاء والفهم العميق الّذي تحلّي به المفوّض. لقد بدا له من المريح أن يجد نفسه أخيرا قبالة رجل يهتمّ بتعرّجات روحه بكلّ هذا السّخاء. لم يجبه على الفور رغم ذلك.

فتابع المفوّض قائلا:

- لا يوجد إنسان لم يشعر ولو مرّة واحدة في حياته بالحاجة إلى تعديل ميزان الخير والشرّ، وإلاّ ستميل كفّة هذا الأخير. ففي ذروة الشّر الّذي نمارس تلمع الفكرة الّتي هي في معنى من المعاني نوع من الغفران من لدن الّذي خلقنا، هذا لأنّنا نعتقد بأنّنا طيّبون جميعا أمام الله. إذا ما كنّا أشرار، وإذا ما تصرّفنا بشكل سيّ، فلم يكن ذلك إلاّ تجاه أناس آخرين. أنت نفسك وأنا متأكّد من ذلك (وهذا ليس انتقادا) قد فعلت مثلي، مثل كلّ العالم، أشياء قبيحة. كأن تكون وراء آلام كائنات أكثر هشاشة منك، كأن تكون أردت حياة على حساب أشباهك، مريحة وسعيدة دون حتّى أن تفكّر في كلّ أولئك الّذين لديهم نفس الطّموح. مستقبلا، وعندما تكون في عمري ستفهم إلى أيّ حدّ كان ذلك بلا معنى.

كان بطلنا يزداد تأثّرا أكثر فأكثر بهذه الأقوال، الأمر الغريب بأن هذه الكلمات «مستقبلا، عندما تكون في عمري»، قد راحت تشعره براحة كبيرة. سيعيش إذن. فمفوّض الشّرطة نفسه لا يتصوّر خلافا لذلك.

- في الواقع، أجاب الشّابّ، لم أفعل دائما ما كان عليّ فعله، واليوم، أنا نادم على كلّ ذلك بمرارة.

- ما الّذي فعلته إذن؟ سأله محاوره مُخْفِيًا فضوله تحت بهجة مفتعلة. بإمكانك أن تقول لي كلّ شيء، سنتحادث مثل أصدقاء. أوه! صدّقني، إنّي أخمّن في أشياء كثيرة. لقد خالطتُ أناسا كثيرين

وتجربتي كبيرة حتّى أستطيع التعرّف على الّذين يحتاجون اهتمام الآخرين. إذا لم أحسّ تجاهك بمودّة حقيقيّة ما كنتُ لأضيع وقتي في استجوابك. لكنّي أريد أن أرى عند هذا الطّفل الّذي أمامي، لأنّي أعتبرك كذلك أخلاقا راقية كالّتي أثبّتها منذ قليل. لديّ ابن، وهو في عمرك. وقد سبّب لي هذا الولد انشغالا كبيرا. مع ذلك أحبّه وأؤمن به. كما أنّي وأنا أحدّثك أجد أنّه من المريح أن أفكّر بأنّ أخطاء ابني ليست أخطاءه، لكنّها أخطاء الحقبة العمريّة.

عاود المفوّض الجلوس إلى مكتبه، أشعل سيجارة أخرى وراح ينظر إلى الشّابّ بحزن.

كان هذا الأخير في غاية التّأثّر. «يا لغرابة الحياة، راح يفكّر، نتلقّى الأكثر من الّذين لا ننتظر منهم الأقلّ.» راح يشعر بانشراح كبير في لجّ محنته. فالرّجل الّذي يخيفه أكثر من أيّ أحد آخر، هو نفسه الّذي يظهر له المودّة الأكثر صدقا. سأل:

- ألا تجد بأنّي أكثر دناءة ممّا أعتقد...

- لا، أجاب المفوّض، لست أكثر من شكّاء تخلّى عنه الجميع وتركوه مع نفسه مع أنّك مازلت بعد طفلا.

- شكرا... شكرا... ردّد أرنولد متلعثما. إنّك طيّب تُجاهي طيبة لم أشهدها من قبل... لو تعرف كم أنا ممتنّ لك...

- هل تريد سيجارة؟

وافق أرنولد. وعندما أشعلها، تابع المفوّض بنفس النّعومة:

- أيّها الشّابّ، انظر إليّ. هكذا... نعم، حسنا، الآن، قل كلّ شيء.

سأصغي إليك كما لا يصغي إليك الأب الّذي لم تعد تملكه.

- لكن كيف عرفت بأنّي لم أعدْ أملك أبا؟ سأل أرنولد مندهشا.

- هذا لأنّي خمّنت ذلك. لا غير الأطفال الّذين فقدوا آباءهم من يتحدّثُون عن أسرارهم بكلّ هذه الصّراحة والسّذاجة لرجل مثلي. هيا، تكلّم، قل لي كلّ شيء. أعرف بأنّك بحاجة للتّحدّث، بأن تريح ضميرك. بعدها، ستشعر بكامل الحرّية، بالسّعادة، بالتّجدّد! أوه! لا تعتقد بأنّي أطلب منك ذلك لأسباب مهنيّة أو أنّي أطلب منك الاعتراف. إنّ هذا بدافع من الصّداقة لا أكثر. أنت وحيد في هذا العالم، لكن نعم، أنا أيضا ورغم وجود عائلتي وأصدقائي مثلك تماما، وحيد في هذا العالم. إنّنا منعزلان أنا وأنت. مع أنّه بإمكاننا أن نكفّ على أن نكون كذلك. هل تعرف في أيّ لحظة؟

- لا! أجاب أرنولد الّذي لم يكن يصغي إليه.

- في اللّحظة الّتي نكون فيها اثنين مثلي أنا وأنت، كائنيْن واعييْن بوحدتهما يلتقيان. فتتوالد من محنتهما المشتركة بعض الرّاحة. وكما ترى، إنّه الأمل في لقاء مثل هذا، تماما مثل هذا، ما دفعني إلى ممارسة هذه المهنة. وحده هذا اللّقاء ما قد يجلب لي بعض الانشراح. ففي لجّ هذه الحيوات البائسة أو تلك، والّتي لا تكفّ عن التّعاقب أمامي كلّ يوم، سأكتشف يوما ما ربّما هذا الّذي أو تلك الّتي ستفهمني. أوه! صدّقني أيّها الشّابّ، أنا أسامحك على بعض هذه الجرائم الّتي قد تكون ارتكبتها. وهل تعرف لماذا؟ هذا لأنّ تلك الجريمة صادرة عن رجل أكثر وحدة منّي شخصيّا. كلّ الأشخاص الشّرفاء

والمحترمين الّذين أراودهم، الّذين هم إمّا أقرباء لي أو أصدقاء، يعيشون كما لو أنّ الحياة ليست هي نفسها الّتي نفكّر فيها نحن. شكّاكون كما يودّون أن يكونوا، يؤمنون بالنّظام القائم، ويؤمنون بالصّداقة. لكن هل هم مستعدّون للعطاء؟ لا أكثر من استعدادهم للتلقّي. في حين، يكون الّذي ارتكب جرما ما وحيدا لأنّ كلّ العالم يتجنّبه. لهذا السّبب أكنّ له شعورا شبيها بالحنان.

على الرّغم من أنّه لا يفهم تماما هذا القول، إلاّ أنّ أرنولد استسلم لصوت المفوّض الدّافئ. كان لديه الانطباع الغامض بأنّه إن كان قد نطق بمثل هذا الكلام، فلا بدّ من أنّ له روحا جميلة ونقيّة. هي سمة من سمات الشّبان الصّغار بأن ينسوا أنفسهم ما إن يكسبوا ثقتهم. كيف الحذر من رجل، وبالرّغم من أنّه مفوّض للشّرطة، بعد كلّ هذا الكلام! مع ذلك، هناك قوّة غامضة مازالت تشدّ وثاق أرنولد. إمّا لأنّه يريد إقناعه بمثل هذه الاستراتيجيا أو لأنّه يشعر فعلا بالحاجة إلى إفشاء أسراره، تابع المفوّض بقوله:

- أنت تراني أمامك أيّها الشّابّ، أشغل منصبا مهمّا. أحظى بتقدير الجميع، بحبّ عائلتي، باحترام موظّفيّ، بإكبار رؤسائي. إلى ماذا يمكن أن يطمح الأحمق أكثر من هذا؟ لا شيء، أ ليْس كذلك؟ أنا سعيد إذن. وحياتي تتعاقبُ برتابة وهي تقف صدّا منيعا بيني وبين العالم. لا شيء يمكن أن يعكّر صفوي. إذا ما كانت زوجتي ستموت قريبا فهو أمر سيطالنا جميعا. لديها أخ وأخت وسنقودها معا إلى القبو العائلي. لن يكون هذا الاختفاء سوى صفعة مصيريّة. هل تفهمني؟ نحن الآخرون، البرجوازيّون، نحن المتواضعون

الوحيدون، البسطاء الوحيدون. وحدنا، واعون بهشاشة الحياة. وعندما يتمكّن الموت من كائن نحبّه، ننحني له، هذا لأنّنا لا يمكننا فعل شيء حياله؟ ننحني في انتظار النّسيان. بالرّغم من أنّنا وفي بعض الأحيان، كنّا نودّ الخروج من وجودنا البائس لاستنشاق بعض الهواء الكافي. كنا نودّ لو لم يكن لدينا عائلة ولا وظيفة، لكنّ زوجة من النّوع الّذي لا نستطيع الاستغناء عنها، زوجة جميلة وشابّة وذكيّة، تغنّي فنحبّ معها الغناء، وتفكّر فنحبّ معها التّفكير، وتعمل فنرغبُ معها في العمل. هل تُصدّق بأنّ الطّفل الّذي ولد من سبع وأربعين سنة من أمّ وُلدت هي الأخرى من أربع وعشرين سنة قبله، هل تصّدق بأنّ قدر هذا الطّفل هو أن يصبح مفوّضا للشّرطة؟ واليوم، ها هي زوجته، ورؤساؤه وموظّفوه ينتظرون منه أن يتصرّف بجدّيه! إنّه الضّحك إلى حدّ الموت.

كان أرنولد يصغي إلى هذه المظالم بغبطة. أعجبته النّبرة، النّبرة المريرة والحزينة والحميمة. أ لَمْ يعش ما يكفي لإسعاد مجرم سعادة بلا مثيل؟ إنّه رئيس الشّرطة إذن من يعترف له. لا شيء في العالم يدفع بطلنا إلى أن يقاطع محاوره. كان يتعاطف مع آلام هذا الأخير، أو بالأحرى ما يَفترض أنّها آلام. كان يؤدّي بجدّية الدّور الطّارئ لكاتم الأسرار. لكن وبما أنّه لم يشعر بأنّه قادر على إيجاد الكلمات الّتي ينتظرها منه المفوّض، كان يكتفي بإيماءة من رأسه تعبيرا على الموافقة. السيّد بيجود، هكذا يُدعى مفوّض الشّرطة للدّائرة الأولى، هل سيتفطّن لعدم فهمه؟ من المتوقّع نعم، هذا لأنّه ومن حين إلى حين يتوقّف من أجل أن يسأل أرنولد إن كان يتابعه، وهو الأمر

الّذي يخلّف فيها فرحة ما ليكتفي بأن يومئ برأسه نفس الإيماءة. وهنا، بدا المفوّض وكأنّه مكتف بهذه الحركة، لكن يمكن لأيّ ملاحظ أن يتفطّن للسّرعة الّتي وفقها تؤدّى تلك الإشارة البسيطة إنّما هي دليل على أنّ المفوّض لم ينخدع البتّة.

- هل تفهم الآن ما هو مأساويّ في وضعيّتي؟

وأرنولد لا يميّز في أيّ ناحية هي مأساويّة وضعيّتُه، لكّنه أمر غير قابل للشّكّ طالما رُويتْ بتأكيد كبير. فقد وجد نفسه في حالة من التّأثّر إلى درجة أنّ المفوّض قد أسرّ إليه ذلك، بنفس النّبرة، واعتبره الأكثر سعادة من كلّ ما حدث له وبأنّه لم يتصوّر ما هو أكثر مواساة له.

- بالمناسبة، تابع المفوّض بقوله، لا أعرف لماذا أحدّثك عن نفسي. هذا لا يهمّك في شيء بالتّأكيد. عندما نكون في عمرك، فإنّنا نركّز انتباهنا على أنفسنا لا أكثر. وأنت، لابدّ وأنّ لك أحزانك أيضا؟

- نعم، لي أحزاني، أجاب بطلنا دون أن يخفيَ السّرور الّذي خلّفه فيه هذا السّؤال.

- وما هي؟ تساءل بلا إلحاح السّيّد بيجود.

- هذا ما يصعب عليّ قوله.

- لماذا، إذن؟

- لن تفهمها.

- كيف يمكنك أن تقول لي هذا، يا صديقي الصّغير؟ إنّ الصّغر

هو عذرك الوحيد.

- لا، لن تفهمها.

- أنت تتصوّر بأنّي ربّما بلا قلب... آه! كم أنت لا تعرفني... لقد عانيتُ الكثير. هناك تعقيدات عشتها ممّا لا يمكنك حتّى توقّعها والّتي عندما تجتاح قلوب رجال متعطّشين للسّلام، تزيدهم عذابا. إلى مثل هؤلاء الرّجال، يمكنك أن تصبّ أسرارك كما تفعل مع أب. يمكنك أن تقول كلّ شيء، أن تُفرغ حمولة ضميرك. سيفهمك.

لامس هذا القول قلب أرنولد. آه! كم كان يودّ لو لم يرتكب أكثر من تفاهات حتّى يكون حرّا وأن يضمحلّ في عمق هذا الرّجل الطّيب والسّخيّ. لكنّه مثقل بالجريمة الّتي أقدم عليها، ليس باستطاعته سوى أن يلزم الصّمت. وإضافة إلى ذلك، فإنّه رغم الانطباع الطّيب الّذي خلّفه في نفسه المفوّض، إلاّ أنّ عمقا حذرا لم يكفّ عن تقييده. لقد سبق وأن سمع بأنّ رجال الشّرطة يتوخّون ألف طريقة من أجل الحصول على الاعتراف ومن بينها النّعومة الّتي هي من أكثرها نجاعة. إلى أيّ مدى كان السيّد بيجود صادقا؟ كان أرنولد يرمقه، لكنّه وبالرّغم من شكوكه هذه كانت ثقته تتعاظم.

- تبدو خائفا منّي، تابع مفوّض الشّرطة. تبدو وكأنّك تشكّ بأنّي عبد لمهامّي. كم أنت مخطئ! كم أنت لا تعرفني كفاية! سيكون عليّ ألاّ أملك سوى طيف ضمير حتّى ألعب الكوميديا الّتي تفترضها، أن أحدّثك بكلّ صراحة لأجل غرض وحيد وهو أن أنتزع منك ما لا أعرف من اعترافات. لا، لست قادرا فعل على ذلك. لستَ في

مكتب مفوّض للشّرطة للدّائرة الأولى، لكنّك في مكان مجهول، أمام رجل يفهمك ويحبّك، هذا لأنّه يشبهك. نعم، أنا أشبهك وأفتخر بذلك. قد يدخل أحد رؤسائي إلى هذا المكتب في هذه اللّحظة، الّتي أواصل فيها تأكيدي على ذلك.

- ما الّذي تريد قوله؟

- أريد أن أقول إنّ ضميرك ومهما كان مثقلا فإنّه لا يضاهي الثّقل الّذي بضميري. هيّا، سلّم نفسك، يمكنك أن تعترف بما أتوقّعه فعليّا.

- وماذا تتوقّع؟

- أشياء كثيرة. ولهذا فقط أكنّ لك مودّة عميقة. لستُ من الرّجال الّذي قد تغيّرهم الوظيفة فينتهون إلى التّعامل مع كلّ شيء بنظرة تحجبها الرّغبة في إحراز التّقدّم. عندما دخلتُ إلى الإدارة كنت مرغما على أن أبقى أنا نفسي وأن أحافظ على كلّ ما هو أصليّ في داخلي. وعندما يأتي يوم مثل هذا اليوم تضعني فيه الظّروف أمام غريب فأكتشف فيه روحا جميلة ونبيلة، أتذكّر من كلّ تلك الأشياء بأنّي على هذه الأرض وأنّي لا أطمح إلاّ للتقرّب من هذه الرّوح. لقد ارتكبت جريمة لكن...

لم يستطع مفوّض الشّرطة مواصلة حديثه.

كان أرنولد قد انتصب واقفا بقفزة.

- ما الّذي تريد قوله؟ صرخ قائلا.

- لا شيء... لا شيء يمكنه أن يسيء إليك.

كان بطلنا شاحبا وكانت يداه ترتعشان.

فجأة، ومثل الّذي عاد إلى وعيه تحت تأثير مصيبة، راح يدرك بأنّه موجود في مكتب لمفوّض شرطة. أ لن يعتقله؟ كان الرّعب يُرعش جفنيه. لِلَحظة، اعتملت بداخله فكرة الفرار مثل مجنون، بأن يستغلّ لطافة السيّد بيجود ويتبخّر قبل أن يغيّر هذا الأخير من طبعه. لكن، وفي نفس الوقت، راح تبدو له إمكانيّة أن يكون مخطئا وبأنّه لو حاول الهرب، سوف يدفع المفوّض حتّى وإن كان صادقا معه على القبض عليه مكرها. أ لن يكون من الأفضل أن ينتظر قليلا قبل أن ينكشف؟ هي ورطة حلّت بثقلها على الشّابّ. هناك وجهة واحدة صحيحة، لكن ما هي؟ ودون أن يتخلّى على نيّته الأولى، راح يتأمّل محاوره. إذا لم يكن خلاصه إلاّ في الفرار، فهذا ما يستدعي تسهيلا ما ويكمن في أن يجد القوّة على أن يتظاهر بأنّه لا يفكّر فيه ولو مجرّد التّفكير.

وبينما كانت كلّ هذه الأفكار المبعثرة تخترق عقل أرنولد، كان المفوّض على حاله هادئا. إنّه لا يبدو حتّى قد تفطّن إلى إمكانيّة أنّ محاوره يتحسّس طريقة إلى لهروب، وهذا ما راح يطمئن هذا الأخير. مثل المجرم الّذي يبذل جهدا ليكسب ثقة رجال الشّرطة الّذين يرافقونه، فيعمد إلى تقديم ألف دليل على خضوعه في حين أنّه في الحقيقة يتحيّن الفرصة الملائمة الّتي تمكّنه من الهروب، عاود أرنولد الجلوس، واضعا رجل على رجل بطريقة لا ثغرة فيها للشكّ بأنّهما على أهبة القفز، ثمّ راح يتحسّس جيوبه متظاهرا بالبحث عن سيجارة.

- لكن ما الّذي أصابك يا عزيزي؟ سأل السيّد بيجود. لقد بدا لي رغم كلّ شيء أنّك فهمت بأنّي أحدثك بوصفي صديقا أو أبا حتّى. أكرّر لك بأنّه ليس عليك أن تخشى شيئا. هل تعتقد بأنّنا لو كنّا في غير هذا الموضع، ما كنت سأبذل نفس الجهد كي أقنعك بحسن نيّتي؟

- حقّا؟

- لكن نعم، حقّا.

لا يعرف أرنولد إن كان عليه أن يصدّق هذا الرّجل الّذي يكتنفه بكلّ هذا العطف. إنّه خائف منه وفي نفس الوقت يتمنّى لو يسلّم بكلّ شيء، لو يعترف، لو يريح قلبه. مثل دابّة لا تعرف الّذي يناديها، كان لا يجرؤ على التّقدّم من الطّبق الّذي نمدّه به. هل هي حقيقيّة، هذه المودّة أم أنّها مجرّد طُعم؟ إن خطا خطوة، أ لن تتهاوى هذه اليد على عنقه؟ ما الّذي ينبغي فعله؟ كان ينظر إلى مفوّض الشّرطة. لا شيء على وجهه يدلّ على ازدواجيّة ما. إنّه رجل مميّز، بملامح مليئة بالطيبة والذّكاء. لكن، المودّة الّتي يكنّها هذا الرّجل لأرنولد هل هي كبيرة إلى درجة قد تدفعه إلى وضع مسيرته المهنيّة في الميزان، هذه المسيرة الّتي اختارها دون شكّ كي ينعم بمشاهدة تعاقب عذابات هذا العالم أمامه؟ لا بدّ أنّها كذلك. لكن، لماذا؟ لا، هذا مستحيل. سيلزم الصّمت. لن يرتكب حماقة التكلّم والاعتراف.

ودون أن يفارق هدوءه، أصبح السيّد بيجود أكثر إلحاحا. بدا وكأنّه قد عرف بأنّ الاعترافات صارت وشيكة. ولا يبقى له سوى

أن يقوم بحركة إضافيّة مقنعة حتّى ينتزع السّر انتزاعا من قلب الشّابّ.

- أنت ارتكبت جريمة يا صديقي. أعرفُ ذلك. لكن، مثلما يكون لأعظم الأفعال سببٌ قبيح، فإنّ لكلّ الجرائم سببا جميلا. على هذه الطّاولة يوجد ملفّ يخصّك. اسمك أرنولد بلاكْ وعمرك أربع وعشرون سنة. أنت تقيم بـ 47 شارع بلانش، أ ليْس كذلك؟ لا... لا... ابق جالسا... دعني أنهي... في غضون دقائق ستكون حُرًّا... يمكنك أن تهبني بعض الدّقائق. قلتُ لك إذن إنّي أملك ملفّا يخصّك. حسنا، اسمعني جيّدا، بالنّسبة إلي، لا وجود لهذا الملفّ... إنّه لا يهمّني في شيء. إنّي أزيحه بيدي، هكذا، وأنظر في عينيْك، وجها لوجه. لا تُدر رأسك. انظر إليّ. ليس من حقّك أن تتهرّب. تماما... هو هذا... أرى بأنّك تملك ضميرا، بأنّك تستحقّ الاهتمام الّذي أوليه لك. حسنا، الآن وقبل أن ترحل، قل لي كلّ الحقيقة. هذا ما سيريحُك، بعدها وما إن تصبح حرّا يمكنك أن تبدأ حياة جديدة.

- هل تعتقد بأنّه بإمكاني أن أبدأ حياة جديدة؟ سأل أرنولد الّذي كان يرتعد خوفا.

- لقد قلتُ لك ذلك للتوّ.

- أوه! شكرا، شكرا، سيّدي المفوّض. لو تعرف فقط حجم الامتنان...

- أنت مخطئ، يا صديقي. إنّي لا أتصرّف بهذه الطّريقة لأحصل على ألقاب من امتنانك. إنّي أتبع ما يمليه عليّ ضميري.

هذه المرّة، نسي أرنولد تماما بأنّه يقبع بمركز للشّرطة. كانت الفرحة الّتي يشعر بها لكونه وجد أخيرا رجلا يحبّه تمنعه من رؤية المشهد كما هو. كان كما السّكران.

- نعم، هذا صحيح، قال بانجراف، لقد ارتكبتُ جريمة بشعة. هذا الرّجل مع ذلك لم يلحق بي أذى يُذكر. لكنّي كنت أعاني من ثقل كرامتي عليّ. هذا لأنّ زوجة هذا الرّجل الّتي كانت تعطيني النّقود قد أهانتني. في كلّ لحظة كانت لا تتحدّث إلاّ عنه. كان يشكّ في أمر ما. أصبح يرفض إعطاءها النّقود الّتي تطلبها منه لتعطيَني إيّاها فيما بعد.

- مع ذلك، وقبل هذه الجريمة، كنت قد أدنت بسرقة. كم كان المبلغ؟

- لا أعرف ستّ أو سبع مائة فرنك. لكنّ هذه النّقود، لم أجرؤ حتّى على الاحتفاظ بها. ما إن وجدت نفسي بالشّارع حتّى وجدتني أرزح فجأة تحت رعب في ضميري ومأتاه تلك الفعلة ولذلك ألقيت بها أدراج الرّياح باشمئزاز.

- وعندما التقيت بزوج هذه المرأة، هل كنت تنوي قتله مسبقا؟ أم قمت بذلك في لحظة انفلات؟

- لماذا تسألني هذا السّؤال؟

- إنّه مجرّد فضول! لديّ انطباع بأنّك خطّطت لهذه الجريمة. هل أنا مخطئ؟

- نعم، أنت مخطئ. لم أكن أنوي قتله مطلقا. لقد لكمته في لحظة

غضب. ولم يكن بحوزتي سلاح.

- مع ذلك، هذه المطرقة الّتي عُثر عليها في مسرح الجريمة لم يتمّ التّعرف عليها من طرف عائلة القتيل. كانت من المفترض أن تكون لك. في هذه الحالة، إنّه لمن الغريب أن تحمل معك مطرقة من أجل الذّهاب إلى موعد حبّ.

في اللّحظة الّتي نطق فيها المفوّض هذه الكلمات، كان وجه أرنولد قد تغيّر ضربة واحدة.

- ما الّذي تريد قوله. سأل بقلق.

- أنا من يطرح عليك السّؤال.

- أوه! لم أعد أعرف شيئا، سيّدي المفوّض، لم أعد أعرف شيئا. أعتقد أنّه من الأفضل لي أن أرحل.

- هل بحوزتك دقيقة أخرى؟

- لا، في الحقيقة لا. أفضّل أن أعود غدا. لكن ما الّذي تكتبه؟

- ألم تقل إنّك تريد المغادرة؟

- نعم، فعلا. أنا في غاية التّعب.

- حسنا، هذه الكلمة الّتي ستستظهر بها لدى عون الخدمة. دون هذه الكلمة، سيجبرونك على العودة من حيث جئت. كما ترى لا غرابة في ذلك.

- آه! نعم، أتفهّم ذلك.

- خذ، خذ، هذه الرّيشة.

- لماذا؟

- لقد وقّعت، ينبغي أن تفعل مثلي.

- لفّ أرنولد حول المكتب ووقّع حيث أشار المفوّض.

- هذا جيّد.

- هل يمكنني المغادرة؟ سأل بطلنا الّذي فقد كلّ شعور بالأمان.

- انتظر دقيقة، سيرافقك أحدهم.

ضغط السيّد بيجود على زرّ جرس. دون شكّ، وبسبب الإرهاق الّذي سبّبته له هذه اللّيلة دون نوم، راح يبدو الآن وكأنّه لا يعرف أرنولد. ظلّ هذه الأخير ينتظر بقلق إمكانيّة الرّحيل. لقد أصبح مشوّشا تماما أمام تغيّر طبع المفوّض. فُتح الباب فجأة ليطلّ عون نصف نائم. ودون أن ينبس بكلمة، وعبر إشارة بسيطة، أمر السيّد بيجود بأخذ أرنولد.

- هيّا، تعال، قال العون للشّابّ الّذي لم يتمكّن من رفع عينيه على مفوّض الشّرطة.

- لقد كان أمرا في غاية الصّعوبة... غمغم هذا الأخير بقوله، كما لو أنّه يحدّثُ نفسه.

- لكن، الورقة، توسّل أرنولد. لقد احتفظتَ بها...

- هذا غير مهمّ. ليس عليك سوى أن تتبع العون.

«كيف يمكن أن يكون لرجل مثل هذه الرّوح الحقيرة! كيف يمكن لهم أن يستغلّوا مشاعرا بذاك النّبل لغاية بهذا القبح؟ أ لا تمضي

ساعة واحدة إلاّ حملت معها سببا إضافيّا للنّفور من هذا العالم؟ أن تُؤدّى مثل هذه الكوميديا، أ ليْست جريمة أكبر من الّتي ارتكبتُها أنا نفسي؟ لقد كان لديّ ألف عذر وعذر، أنا. لكن، هذا الرّجل، أيّ أعذار يملك؟ سيتلقّى بعض التّهاني ربّما لا أكثر. توجد مقرّات شرطة شبيهة بالقنصليّات. هناك دوائر مطلوبة أكثر من أخرى. لذا سيرتقي هذا المفوّض من الدّائرة الأولى إلى السّادسة عشر.»

كان أرنولد يقطع زنزانته ذهابا وإيّابا. انضاف إلى شعوره بالمرارة الغضبُ الشّديدُ. لقد قتل، هذا مفهوم، لكن كان ينبغي رغم ذلك أخذ الظّروف الّتي ارتكب خلالها هذا القتل في عين الاعتبار. لقد قتل ذلك الرّجل في لحظة غضب. لم يكن خطؤه أن تكون لكمته قاتلة. لو كانت هناك عدالة، أ لم يكن من الأولى البتّ في الحقيقة قبل اعتقاله؟ أ لن يكتشفوا وقتها بأنّ روحه أقلّ قبحا من روح السيّد بيجود؟

كان يدور على نفسه بين أربعة جدران راحت تضيّق خناقه وكان أحيانا ينادي الموت من أجل الخلاص. وكان في بعض الأحيان يشرع في الارتعاد منذ القدمين إلى الرّأس، ما يدفعه للجلوس. هي مظلمة أخرى إذن تُرتكبُ في حقّه. لا أحد يصدّق جمال مشاعره. لا أحد يصدّق بأنّه رغب في أن يقوم بفعل جميل لسبب وحيد مفاده أنّه لم يفعل ذلك قطّ. ورغم ذلك، فإنّ الله يعلم الحقيقة، كلّ الحقيقة. لقد تحالف النّاسُ ضدّه. لقد بدأوا بسَجنه، أين يتوقّف شرّهم؟ كم تبدو له السّماء زرقاء وهو يلمحها من كوّة صغيرة بالسّقف! ذاك الحَمام، وتلك الخطاطيف، كم تبدو سعيدة بأن ترمي بنفسها في الفضاء

هكذا! «وأنا، ها إنّي هنا، بين هذه الحيطان الرّطبة، دون أن يطّلع أحد على أعماق قلبي.» لقد صرخ مردّدا كلماته الأخيرة تقريبا.

- هل تريد أن تخرس، قال الحارس الّذي فتح باب الزنزانة.

- ولماذا عليّ أن أخرس؟

- هيّا، هيّا، لا تردّ بهذه النّبرة. أقول لك ما أقول لمصلحتك. إذا كان هذا ما يسلّيك فيمكنك الصّراخ أعلى وأعلى. إذا ما سمعك الرّقيب، لك أن ترتّب أمورك معه. لكنّي أحذّرك، سيكون أقلّ هدوء منّي.

كان أرنولد مرهقا. لم ينم. وكانت يداه ملتهبتيْن. دون اغتسال ولا حلاقة، كان يشعر بالاشمئزاز من نفسه. وكانت ثيابه الّتي جفّت بعد بللها قد اتّخذت ألف طيّة إضافيّة. كان قد أضاع قبّعته لا يعرف أين. أحيانا، عندما يتذكّر الطّريقة الّتي وفقها حصلوا على اعترافاته، كانت تستبدّ به فوره من الغضب العاجز. آه! لو كان حرّا! سيكون أوّل فعل يقوم به هو الانتقام. ليس هو من يسامح! يا لهؤلاء النّاس الأشرار. كيف لهم أن يدّعوا الصّراحة والنّقاوة والصّدق إلى هذه الدّرجة؟ ولماذا حالوا دونه والقيام بفعله الجميل؟ لماذا لم يريدوا التّمسّك سوى بأكثر الأفعال فظاعة الّتي بدرت عنه، في حين هناك أفعال أخرى كثيرة؟

- ماذا تريد؟ سأل أرنولد الحارس الّذي انسحب ليترك له مكانا لخروج السّجين، دون أن يرى ضرورة لتقديم أيّ من تلك التّفاسير.

- يريد قاضي التّحقيق أن يستجوبك.

- القاضي؟

- قاضي التّحقيق، نعم. هل هذا يُدهشك؟ هيّا، أسرع. هل تعتقد مصادفة أنّ لي وقتا لأضيّعه معك؟

في غضون لحظات قليلة، تمّ إدخال أرنولد إلى مكتب قاضي التّحقيق. كان هذا الأخير بصدد إغلاق النّافذة. وقد أُعجب بطلنا بهذا التّفصيل. كان بالقاعة موظّفان أو ثلاثة. وكي لا يزعج أحد منهم، كان القاضي قد وقف بنفسه لفعل ذلك. إنّها لعلامة دالّة على رفعة شخصيّته دون أدنى شكّ. كان أرنولد ما زال يراه من الخلف. له كتفان مدّوران ومليئان أمّا ساعده الأيمن المتعوّد على الاتّكاء على المكتب لغرض الكتابة فقد كان في تباعد عن بقيّة الجسم، وهو ما يجعله شبيها بمعاق.

- اجلس، قال رجلٌ جالس قبالة ركن طاولة صغيرة.

أطاع أرنولد، ليس دون أن يجيب بنظرة شرّيرة. في هذا الآونة، التفت القاضي، ليبدو وجهه مشعًّا بنور ساطع. لم يتمكّن أرنولد من أن يكتم صرخة صغيرة.

- اخرس، قال الرّجل الجالس إلى الطّاولة الصّغيرة في نفس الوقت الّذي همز فيه الحارسُ بطلَنا بذراعه.

ودون أن يرفع عينيْه إلى المتّهم، استعاد القاضي مكانه في مكتبه. راح يقلّب بعض الأوراق، ليميل قليلا بعد ذلك فيغلق درجا حيثُ بعض الملفّات، ثمّ وقد تناول مسطرة راح يرمق المُدّعى عليه. أطلق هذا الأخير صرخة أخرى. لقد تعرّف على الّذي يَحْضُر بين يديه

والّذي صار قدَرَه على ما يبدو، إنّه الرّجل الّذي كان خلال اللّيلة الماضية قد اعترضه سبيله لمرّتين متتاليتيْن. فقاضي التّحقيق وذاك الرّجل التّعيس الّذي كان يحاول النّيل من الفتاة ليسا سوى واحد. كان بدوره قد تعرّف على الشّاب. ومع ذلك، لم تتحرّك ولو عضلة واحدة في وجهه.

- أيّ قضيّة لدينا هنا؟ سأل سكرتيره بكلّ ما لديه من هدوء.

- إنّها « قضيّة بافيلاّن ». وهذا الرّجل هو القاتل. ليس عليك سوى أن تفتح الملفّ، ستجد كلّ اعترافاته مُرْفقة.

- هل اعترف؟

- نعم، سيّدي القاضي. وقد كان ذلك دون عناء كبير. كلّ الفضل يعود للسيّد بيجود.

- من يكون السيّد بيجود؟

- السيّد بيجود هو مفوّض الشّرطة للدائرة الأولى. خلال اللّيلة الفارطة وبما أنّ ...

توجّه قاضي التّحقيق لأرنولد مقاطعا لمساعده:

- وما هي الأسباب الّتي دفعتك لقتل السيّد بافيلاّن؟ هي الحاجة إلى النّقود دون شكّ... قال دون أن يتيح الوقت لأرنولد بأن يجيب، وهنا تكلّم السّكرتير:

- تماما، يا سيّدي القاضي. فقد تمّ العثور على مبلغ سبعمائة فرنك بحوزة المتّهم. وقد ادّعى بأنّه ألقى بالنّقود لتطير أدراج الرّياح. ومع

ذلك، وعندما سُئلَ عن مصدر السّبعمائة فرنك، لم يتمكّن سوى من تقديم تفسيرات غير متناسقة. وقد ادّعى في لحظة ما بأنّه حصل عليها من أمّه. غير أن الأبحاث قد كشفت بأنّ هذه المرأة الفقيرة لم تعطه شيئا.

وبينما كان السّكرتير يتحدّث، كان أرنولد لا يفارق القاضي بعينيه. لكنّ هذا الأخير هرّب نظراته. ومثل رجل ضبط زوجته مع أفضل أصدقائه، كان بطلنا ينتظر بلا شفقة وبفارغ الصّبر اللحظة الحتميّة الّتي سيرفع خلالها القاضي عينيه إليه. وعندما كان السّكرتير يكلّمه، كان يجيب دون أن يدير رأسه، فقد كان يخشى أن تفوته تلك اللّحظة.

- أنت تقيم ب 47، شارع بلانش؟ سأل القاضي وهو بعد منكبّ على الملفّ.

- نعم سيّدي القاضي، أجاب أرنولد بصوت صادح.

- هل وقّعت على اعترافاتك؟

- تماما.

- هل لديك ما تضيفه؟

-لا سيّدي القاضي، أجاب أرنولد صارخا كما لو أنّه يريد حقّا تحدّي محاوره.

في الحقيقة، إنّه يرغبُ في ذلك بشدّة. إذا ما كان لهذا القاضي ضمير، فعليه أن يتعذّب! كان أرنولد يدسّ سعادته تحت هذه القسوة. أيّ نصر سيكون حليفه، عمّا قليل، عندما يكشف أمام

الجميع رذائل هذا الرّجل! إنّهم لم يتردّدوا في انتزاع اعترافات منه بطرق ملتوية. هذا أفضل. بهذه الطّريقة، لن يندم على كشف هذا القاضي، أن يدمّر حياته المهنيّة وأن يهينه على الأقلّ. هناك إذن ورغم كلّ شيء عدالة مختلفة عن الّتي نطبّقها في هذا المكان. وهذه العدالة، ليست عدالة الإنسان.

راح أرنولد يتلذّذ قوّته. إنّه حتّى لا يتعجّل في كشف لعبته. لديه كلّ الوقت. يمكنهم أن يفعلوا به ما يشاؤون، لن يفتح فمه. عمّا قليل، وعندما سيبدو أمره محسوما للجميع، سيطلب متظاهرا بالخجل، بأنّه يرغب في الإدلاء باعتراف صغير. يا للانتقام!

- ليس لديك ما تضيفه؟ تابع القاضي.

- لا، كرّر أرنولد.

- هذا جيّد.

في هذه اللّحظة، ولأوّل مرّة، تجرّأ على رفع عينيه لينظر إلى المتّهم. وكان هذا الأخير ينتظر هذه النّظرة. هل سيتكلّم؟ كان متردّدا. أ لا تبدو عينا القاضي متوسّلتيْن؟ أ لن تكون بهما دمعتان لتعطيهما لمعانا لم يتعوّد عليه أحد. وهاتان اليدان الرّقيقتان الموضوعتان على الملفّ، أ لا تبدوان منصرفتيْن إلى الصّلاة؟

أمام هذا الاستجداء الصّامت، عمّ وضوح مفاجئ في روح الشّابّ. هذا الفعل الجميلُ الّذي طالما لهث خلف القيام به، هذا الفعل الّذي سيطهّره، أ ليس في متناوله الآن؟ أشار بيده إشارة بلا سبب ومفادها «لا يهمّ». لماذا «لا يهمّ»، إنّه ما لا يعرفه. ظلّ ينظر إلى

القاضي. لهذا الرّجل زوجة وأبناء وأصدقاء ووضعيّة اجتماعيّة. كم سيكون امتنانه كبيرا للّذي يعرف سرّ حياته ولا يستخدمه من أجل الحصول على تسامح القضاة. لا، أرنولد لن يتكلّم. سيحتفظ في عمق قلبه بالسرّ الّذي بإمكان كشفه أن يلقيَ بقاضيه الخاصّ في الهاوية. أيّ فعل أجمل من هذا الّذي بين يديه من كلّ أفعال العالم؟ مبتهجا بهذا الحلّ الجديد، خفّض عينيه وسنح لمسحة من الحزن العميق لتتسرّب في كلّ وجهه. «لا تخش شيئا، يبدو وكأنّه يقول، لن أكشفك.» القاضي لا يجيب. كان متأثّرا إلى حدّ الدّموع بمثل هذه الرّفعة، وظلّ يتأمّل بشفقة هذا الرّجل الّذي دفعته الظّروف إلى استجوابه.

- شكرا، غمغم قائل مرفقا كلمته بنفَسٍ، حتّى لا يتفطّن الأشخاص الّذين يحضرون هذا المشهد إلى شيء يُذكر.

- لا شكر على واجب، سيّدي القاضي، أجاب السّكرتير الّذي اعتقد بأنّ الشّكر موجّه له.

عندما وجد نفسه من جديد في زنزانته، كان أرنولد على مشارف أن يبدأ بالغناء لعمق سعادته. لم يعد قاتلا فظّا. لقد أظهر للتوّ، بشكل لا يحتمل الشّك، إلى أيّ مدى يمكن أن تسموَ روحه. خلال لحظات، ستنقشعُ أبوب سجنه ليصبح حرّا مثل الحَمام، مثل الخطاطيف... سيرحل بُخطى واثقة، دون أدنى التفاتة، وهو يؤرجح ذراعيْهِ، بوجه تلثمه الرّياح وبرأس عار.

كم دقيقة، أو كم ساعة عاش أرنولد في عمق هذا الفرح الغامر؟

كما هو دائما، استعاد وعيه في سواد اللّيل ليكتشف الحقيقة. وأدرك فجأة أنّه مسجون. كان ضوء السّماء المرصّعة بالنّجوم وحده ما يضيء زنزانته. «أين أنا؟» راح يسأل بقلق شديد. لم يعد يعرف منذ متى ولا لماذا هو مسجون. كان ظلّه ساكنا على طول الحائط. وكان ينظر إليه مندهشا. هو ظلّ محدودب كظلّ عجوز. «لكن ربّما أكون هذا العجوز»، راح يفكّر. رفع يده إلى وجهه دون إرادة منه. هناك لحية سميكة تغطّيه. «لا بدّ وأنّي أحلم، لا شيء آخر ممكن.» نادى بصوته. لا مجيب. فنادى بصوت أقوى. تواصل نفس الصّمت الّذي يحيطه. فشرع في الزعيق.

- ماذا هناك؟ سأل الحارسُ من خلال الباب.

- قل لي أين أنا، أخبرني بما سيحدث لي.

- لكن، لا شيء. كن شجاعا. هذا كلّ ما يمكن أن أقوله لك.

وراحت خطوات الحارس تبتعد. ظلّ أرنولد يستمع إليها إلى أن أصبحت غير مسموعة. ثمّ ومثل الّذي وقعت عليه كتلة ثقيلة، تهاوى على فراشه. فجأة، وفي غمرة نعاسه، راح يدرك أصواتا تقترب منه. أصاخ السّمع. كان الوقتُ فجرا. وكان يرتجف.

- كن شُجاعا، قال له الحارسُ الّذي لم ير كيف دخل ليقف بجواره في الزنزانة.

- لماذا؟ سأل أرنولد.

- لقد حان ساعة التّكفير عن جريمتك.

انتصب أرنولد واقفا. كان هناك خمسة أو ستّة رجال، في ثياب

سوداء، يتحدّثون بصوت خفيض.

- لكن، ما الّذي يحدث؟ تساءل وهو مازال مرتعدا من القدمين إلى حدود الرّأس.

فجأة، فهم كلّ ما يدور. إنّه محكوم بالإعدام وسيقودونه لتنفيذ الحكم. كان يريد الفرار، لكنّه بالكاد يقدر على أداء حركة بسيطة. لقد تمّ تجميده منذ الذّراعين إلى كلّ جسمه.

- هذا مخجل، هذا مخجل! راح يصرخ محاولا فكّ نفسه. لا حقّ لأحد أن يفعل بي هذا. أين القاضي؟ هو يعرف كلّ شيء. لقد وعدني بأن يعيد لي حرّيتي. حرّيتي الّتي بها لن أكون مدانا بهذه الطّريقة. كان عليّ أن أكشف كلّ شيء لينفجر الضّوء. أين القاضي؟

- إنّه نائم، أجاب صوت.

- اذهب للبحث عنه، اذهب للبحث عنه. إنّه الوحيد القادر على إنقاذي.

- لا يمكنه إنقاذك بما أنّه هو من أدانك.

عند سماعه لهذه الكلمات، فقد أرنولد نصف وعيه. سقط رأسه على صدره. بأذنيه الطّانّتين، كان رغم ذلك واعيا بأنّهم يحملونه. كانت ريح جليديّة تجلد وجهه دون أن توقظه. دون شكّ، هو مجرور إلى مكان تنفيذ الحكم. وفي محاولة أخيرة، كان يريد فعل أيّ شيء للدّفاع عن نفسه، لكن كلّ ما في وسعِهِ فعله هو أن يحرّك ذراعيه المتأرجحتين. سمع بوضوح صوتا آمرا:

- ضعوه على ظهره.

وهو ما بدا له شديد الغرابة. لم يحضر من قبل مشهد إعدام، لكنّه راح يبدو له بأنّ الفأس قد هوت على عنقه لا على حلقه. وفتح عينيه...

كان صاحبُ فندق شارع بلانش يقف أعلى رأسه. وكانت النّافذة والباب مفتوحين بشكل يسبّب تيّارا هوائيّا. ورغم ذلك، كانت هناك رائحة غاز قويّة تعلق بالغرفة. كما هناك جيران يتحدّثون في الممرّ. كان هناك طبيبٌ بقميص مشمّر يحوم حوله. كان أرنولد ممدّدا على ظهره، ينظر إلى السّقف ثمّ إلى المصباح الكهربائيّ. وهنا تذكّر كلّ شيء.

- يمكنك القول إنّك نجوت منها في آخر لحظة، قال صاحبُ الفندق ملاحظا.

- لكن، ما الّذي دهاك في مثل عمرك؟ تساءل آخر.

لم يكن أرنولد يصغي إلى هذه الأقوال. وقد تخلّص من هذا الكابوس المرعب، راح يستعيد طعم الحياة ببطء. في كنف هذه الفرحة الّتي تغمره لاحظ وجود رجليْن بوجهيْن حازميْن، يقفان في غرفته.

- هل بإمكانه المشي؟ سأل أحدهما الطّبيب.

- لا. ينبغي إحضار سيّارة إسعاف.

- حسنا.

ثمّ متوجّها للشّابّ:

- بالمناسبة، أين أخفيت السّبعمائة فرنك؟ لقد بحثت عنها في كلّ مكان. هي ليست في هذه الغرفة. اعترف إذن بأنّك أعطيتها لشريك ما.

أرنولد لا يُجيبُ.

- لكن كيف خامرتك فكرة الانتحار. هل نقتل أنفسنا لأنّنا سرقنا سبعمائة فرنكا من امرأة.

هذه المرّة، بدأ الشّاب في الارتجاف.

- هذا خطير جدا، خطير جدّا، أ ليْسَ كذلك؟

- هذا أكيد، هذا ليس أمينا من طرفي، لكن في النهاية، لا يوجد ما يدفعه للانتحار.

كان للشّرطيين رغم كلّ شيء قلبان طيّبان. أن يفقد شابّ عقله إلى درجة أنّه يختار الموت لأنّه ببساطة سرق سبعمائة فرنكا، أمرٌ أثّر فيهما. وهو ما غيّر من طبعهما الميّال إلى أن يكون طبع قطّاع طرق. وبما أنّ أرنولد شرع في النّحيب، فإنّ أحدهما توجّه إليه قائلا بكلّ لطف:

- لا ينبغي أن تتأثّر إلى هذه الدّرجة، يا صغيري.

- لكنّه سقط في الوقت الّذي لكمتُهُ فيها.

- عمّن تتحدّث؟

- السّيد بافيلان، هل مات؟

وانفجر المفتّشان ضاحكيْن.

- مات! آه! هذا لا! إنّه لا يفوّت ساعة واحدة دون أن يسألنا عبر الهاتف إن كنّا تمكنّا من اعتقالك. ينبغي أن يكون عددنا كافيا يوم نضعكما وجها لوجه أنت وهو، ستكون في أشدّك، لن تكون مثلما أنت عليه الآن بسبب الغاز، لن يفلت منكَ.

لم يستطع أرنولد أن يحبس صرخة فرح. هو إذن لم يقتل السيّد بافيلان! إنّه بريء إذن! يا إلهي كم تبدو الحياة جميلة! لا يتبقّى سوى مسألة السّبعمائة فرنك. كم تبدو مسألة صغيرة. حاول الوقوف، لكن رأسه الّذي لا يكفّ عن الدّوار سقط إلى الوراء، دون وعي. «ما هي تهمته إذن؟» سمع صوتا وكأنّه قادم من داخل حلم.

كان يريد أن يجيب، لكن لا أحد يستمع إليه. «هذا ليس خطيرا، قال أحد الشّرطيين، إنّه شابّ في مقتبل العمر لا يريد العمل! لو تعلمون كم هم كثر! ينبغي أن يعيشوا رغم ذلك. أصبح عشيق زوجة تاجر في شارع الكليشي. أعطته ما استطاعت حتّى تتمكّن من صرف نظره عن منزلها. لكن الزّوج تفطّن إلى سرقة مبالغ صغيرة بانتظام من أمواله. في النّهاية تمكّن من ضبط زوجته. فاعترفت له بالحقيقة. سامحها بشرط أن تخبره عن المكان الّذي تلتقي فيه بعشيقها. جاء في الموعد برفقتها إذن. ويمكنهم توقّع الباقي. نشبت بين الرجليْن خصومة. وتبادلا اللّكمات. على إثر لكمة في الوجه، سقط السيّد بافيلان أرضا ولاذ الشّاب بالفرار مذعورا. راح يتصوّر بأنّه أصبح مجرما، وقرّر في قمّة يأسه الانتحار.»

لم يضع أرنولد ولو كلمة واحدة من أقوال الشّرطيّ. فعاد إلى وعيه.

- شكرا، ردّد قائلا. هو تماما ما حدث. من البديهيّ أنّه ما كان عليّ أخذ السّبعمائة فرنك هذه من حقيبة السيّدة بافيلان، لكنّي لم أكن واعيا بما أفعل. كنت تعيسا. كنت متألّما. كان لديّ شعور بأنّها لم تعد تحبّني، وبأنّها هي من روت كلّ شيء لزوجها، وأنّها كانت تبحث عن أيّ طريقة للتّخلّص منّي.

- لا تكن بهذا التّشاؤم، سيكون كلّ شيء على ما يُرام.

قد يبدو من الغرابة أن يكون مفتّشا شرطة بمثل هذا التّسامح تجاه لصّ. الحقيقة أنّهما لم يكونا يحتملان السيّد بافيلان. ففي مقرّ الشّرطة العدليّة، عندما دُعيَ لتقديم معلومات ضروريّة من شأنها أن تسهّل الأبحاث، كان بطبع كريه. «أنا مواطن فرنسيّ، صرخ قائلا في مكتب كبير الضبّاط، ومن حقّي أن يتمّ احترامي كأيّ مواطن آخر. ليس لأنّي تاجر صغير حتّى لا تأخذوا قضيّة بالجدّية اللاّزمة. أستحقّ ما استحقّ كأيّ فرد آخر. آه! لو لم يكن أمرا «فظّا» لقلت بأنّ قضيّتي ليست من شأن مفتّشين بسيطين! وكان لا يكفّ عن تكرار بأنّنا في جمهوريّة، وبأنّنا متساوون جميعا، لكن هذا ليس صحيحا. أخيّر أن أقول لك إنّي لا أريد أن يسخر منّي أحد. هنا سأطالب بما هو حق» وهذا لم يكن دون مشقّة حتّى يهدّأ كبير الضبّاط من روع السيّد بافيلان.

- هل تعتقدان بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام؟ سأل أرنولد.

- هذا أكيد. نرى جيّدا بأنّك لست مثل باقي اللّصوص. وعلاوة على ذلك، سأقدّم لك نصيحة.

- ما هي؟

- كن طبيعيّا وصادقا. قل الحقيقة. لا تحاول خداع العدالة. لقد ارتكبت أخطاء... لذا اعترف بها. للقضاء طيبة أكبر ممّا نعتقد. سيفهمون على الفور أيّ نوع من الأشخاص أمامهم. آه! من البديهيّ أنّهم لا يحبّذون أن نسخر منهم. لكن هذا مفهوم. إنّنا متشابهون جميعا، أ ليس كذلك؟ نحن لا نحبّذ أن يتفوّق علينا الجار على سبيل المثال. في مهنتي، مثلا، لا أحبّ أن يأتي أحدهم ليتفوّق عليّ. إنّي أنتمي إلى سلك الشّرطة منذ ثلاث وعشرين سنة. لك أن تخمّن إن كان بحوزتي ما يكفي من خبرة كي أميّز بين لصّ أو شخص أمين. لا ينبغي إذن أن يأتي أحدهم ليقول لي إنّي مخطئ. وعليه، هذا واضح لي، إنّك لست لصّا. لقد مررت بفترة ضعف، لكنّك نادم على ذلك كثيرا. لك أن تتخيّل «بونّو» أو «غارنييه»[1] وهما يقدمان على الانتحار لأنّهما لكَما زوجا غيورا.

- والسّبعمائة فرنك؟ سأل أرنولد.

في هذه الآونة، قدمت منظّفة لتعلم الشّرطيين بوصول سيّارة الإسعاف البلديّة وهي بالأسفل وبأنّ السّائق والممرّض في طريقهما إلى الغرفة. شعر أرنولد بأنّه أفضل. استعاد طعم الحياة برمّته. فحقنة زيت الكافور الّتي حقنه بها الطّبيب منذ عشر دقائق بدأت في إعطاء مفعولها. لا أحد من المحيطين يبدو بغيضا. لقد عاش إذن خلال

1 .بونّو (جول بونو: 1876. 1912)، رجل معروف بخروجه عن القانون وقد تورّط مع جماعته في عمليّات سطو وقتل خصوصا بين سنتي 1911 و1912. غارنييه (اوكتاف غارنييه: 1889. 1912) من مؤسسي عصابة بونو الخارجة عن القانون.

فقدانه الوعي كابوسا مرعبا. ومن حسن الحظّ أن يكون قد انتهى الآن.

عندما شعر بأنّه ممدّد على متن النّقالة، لم يمسك نفسه عن رسم ابتسامة.

- هل لك، قال للممرّض الّذي وراءه، ألاّ ترجرجني بهذه الطّريقة. هذا ما يصيبني بدوار البحر.

كان الشّرطيّان اللّذان يسيران بجانبه ينظران إلى بعضهما البعض باندهاش. وقبل إدخال أرنولد إلى سيّارة الإسعاف، وضع الممرّضان النّقالة على الرّصيف للحظات قليلة.

- لن تتركاني هكذا تحت المطر، قال أرنولد بكلّ جفاء.

هذه المرّة، نفد صبرُ أحد الشّرطيّيْن. فرفع يده مومئا.

ما الّذي حدث إذن؟

لا أحد سيعرف ذلكَ أبدا، ففي تلكَ اللّحظة سلّم أرنولد روحه إلى الله.

1927

Bitterness-5

إيمانويل بوف

اللّيلة الأخيرة

أرنولد، الفتى الّذي تتّضح فيه وعليه كلّ خصائص البطل وفق نظرة إيمانويل بوف الرّوائيّة، وفي إحدى الغرف المظلمة في نزل حقير بالحيّ الشّعبيّ «مونمارتر» بالدّائرة الثّامنة عشر لباريس، وهو في تمام يأسه، تتنازعه كلّ أصناف الأزمات، ويطلّ على الزّحام من نافذة معزولة. خلال ليلة وحيدة وأخيرة، دامسة وماطرة، يقرّر أرنولد غلق تلك النّافذة وتجريب آخر الوسائل من أجل معانقة البطولة، من أجل الحصول على «مكان ما بين النّاس»، هذه الوسيلة هي التحكّم في مقالب الانتحار.

لا يمكنُ الخروجُ من عالمِ إيمانويل بوف بسهولة، فرواياتهُ شبيهة بغابة كثيفة، أشجارها متشابكة وعوالمها غريبة ومخيفة، لا تخرجُ منها إلا وقد زُرعت في جسدك خدوش كثيرة. في اللّيلة الأخيرة، يزرعُ بوف خدوشًا أخرى في الذّات الإنسانية. يقفُ أمامها في هيئة قاضٍ مطرقتهُ القسوة وفي هيئة متّهم تهمتهُ ابتسامتهُ الحزينة التي تُقرّر فجأة أن تموت. قد تنجحُ مطرقة القسوة في الوقوف أمام إرادة تلك الابتسامة التي ترغب في الموت، لكن ما من ابتسامة في هذا العالم، يمكنها أن تقف في وجه القسوة. هذا درس إيمانويل بوف الذي يريدُ أن يلقّنهُ إلى العالم في ليلة واحدة... قد تكون الليلة الأخيرة.

ISBN 978-603-91437-4-1

9 786039 143741

WWW.PAGE-7.COM